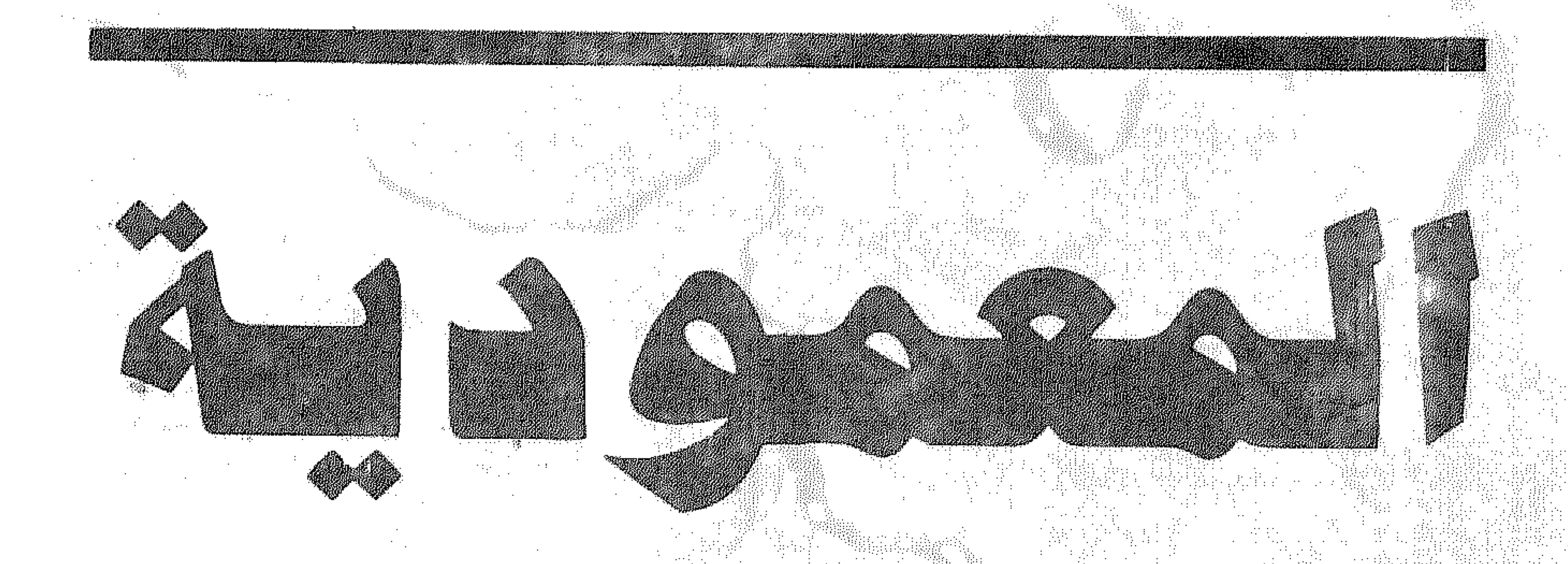
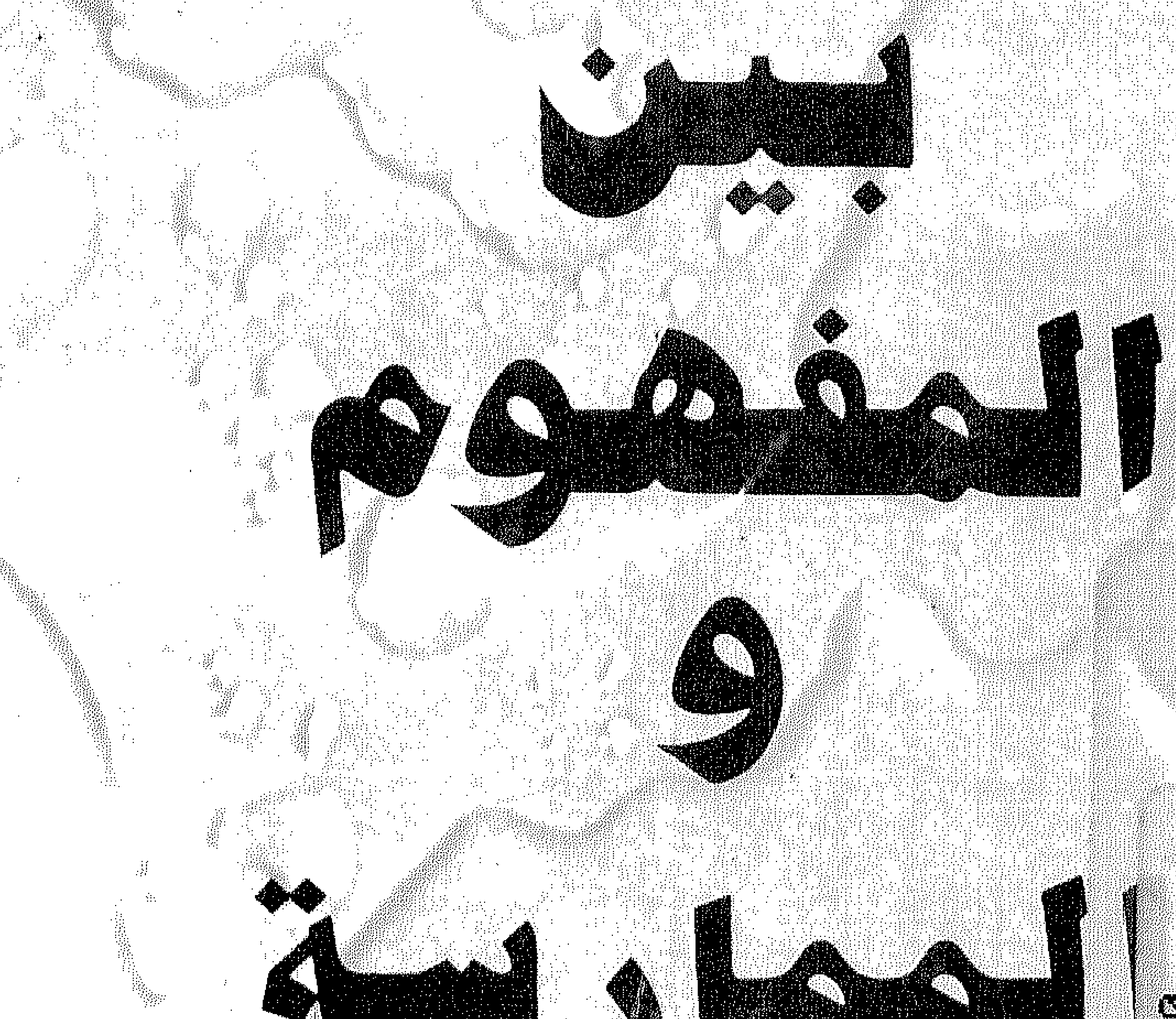
دار الثقافة



المعمودية



بين المفهوم و الممارسة

القس مكرم نجيب

Bibliotheca Alexandrina
0014615

المعمودية

بين المفهوم والممارسة

القس مكرم نجيب



ization of the Alexandria Library (GOAL



صدر عن دار الثقافة ـ ص . ب ١٢٩٨ ـ القاهرة .
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)
١٠٠ / ٤٥١ ط ١ (أ) / ٥ ـ ٥ / ٩٠ .
رقم الايداع بدار الكتب : ٢٤٦٥ / ٩٠
رقم الايداع الدولى : ٥ - ١٢٠ - ١٦٦ - ٩٧٧
جمع فى سيوبرس .
طبع بمطبعة دار نوبار للطباعة ـ شبرا ـ القاهرة .

الفهـــرس

اهـــــداء

إلـى أولادى الأعـزاء
داليـــا ومـــودى

مقدمة

لست أجد قضية يتفق حول أهميتها وضرورتها ، وتلقي هذا الإجماع في كل العالم من كل الطوائف والمذاهب المسيحية ــ ما عدا جماعات قليلة مثل الكويكرز وجيش الخلاص ــ وفي نفس الوقت تلقى اختلافًا حولها برغم كل هذا الإجماع ، من كل الطوائف والمذاهب المسيحية ، مثل قضية المعمودية .

فقد تقابل مجموعة من ستة أفراد مسيحيين ، إثنان منهم ينتمون للكنيسة الإنجيلية ، وينتمي الأربعة الآخرون إلى طوائف ومذاهب مختلفة ، وتسألهم عن إيمانهم جميعًا بالمعمودية ، وهل تعمدوا أم لا ، فتكون الإجابة العامة بالإيجاب من الجميع . ولكن عندما يبدأ كل واحد في التعبير عن نفسه ، تظهر المشاكل العملية سواء فى المفهوم أو في الممارسة . ولذلك يحسن بى أن أقدم كل واحد منهم على حدة ، ليتحدث عن نفسه كما يشاء ، ولنصغي إليهم جميعًا بعمق وتفهم .

كان الأول من خلفية تقليدية ، وكانت إجابته : نعم لقد تعمدت وأنا طفل صغير ، وكل ما أنا عليه وفيه الآن كمسيحي ، وكعضو في الكنيسة التي هى جسد المسيح ، من نبع هذه المعمودية التي قامت بها الكنيسة في حياتي . إن المعمودية عندنا سر إلهي من أهم الأسرار الكنسية المقدسة ، فلا خلاص بدون المعمودية التي تمارسها الكنيسة ، ويقوم بها الكاهن . فالإيمان كله قد خزن أو جمع في المعمودية كما يقول القديس أثناسيوس ، وفي المعمودية نلبس المسيح وندخل إلى الكنيسة .

أما الثاني فكان من الكنيسة الإنجيلية ، وقال : لقد تعمدت وأنا طفل في الكنيسة ، وتدريجيًا كلما كبرت تعلمت أن المعمودية علامة خارجية على نعمة داخلية ، ولكنني أدركت أيضًا أنه لكي أتمتع بالخلاص والحياة الجديدة في المسيح ، لا بد أن أقبل عمل الرب يسوع في حياتي بالنعمة بالإيمان ، وأن اختبر العلاقة الشخصية معه ، ولقد تمتعت بذلك في مرحلة ما من حياتى ، وها أنا أنمو كل يوم في علاقتي بالرب .

وعندما جاء دور الثالث ، وقد كان تابعًا لكنيسة معمدانية ، قال : لقد نشأت في عائلة متدينة مرتبطة بالكنيسة وبحياتها وأنشطتها ، لكنني لم أتعمد إلا في المرحلة الثانوية ، بعد أن اختبرت الإيمان بالرب يسوع في مؤتمر روحي من مؤتمرات الشباب بالكنيسة . ألم يقل السيد المسيح « من آمن واعتمد خلص .. » ، ولذلك فنحن نؤمن أن الإيمان الشخصي يسبق المعمودية ، وأن المعمودية فرصة لإعلان هذا الاختبار . صحيح أن الكنيسة تمارس « التكريس » للأطفال في صغرهم لكنها لا تمارس المعمودية إلا للكبار بعد اختبار الإيمان .

أما الرابع فلم يعترض بشيء على كلام صديقه المعمداني ، إنه يؤمن بمعمودية الكبار بعد اختبار الإيمان الشخصي بالرب يسوع وبعمله ، ولقد تعمد هو وزوجته بعد إيمانهما نتيجة صلاة وكرازة أسرة صديقة لهما . لكنه أضاف على كلام زميله المعمداني : إن هذه المعمودية قادتني بعد فترة إلى معمودية أخرى هى معمودية الروح القدس ، ولقد اختبرت في هذه المعمودية الثانية أبعادًا جديدة لم أختبرها من قبل في حياتي ، وكان هذا بفضل تعليم كنيستي الخمسينية .

بعد هذه الإجابات سادت فترة من الصمت المشوب بالتوتر ، قطعه صوت الخامس الذي قال بنبرة يغلب عليها الإنفعال : أنا لا أريد أن أضيف شيئًا ، فأنا مؤمن أرثوذكسي ، تعمدت وأنا طفل وارتبطت بالكنيسة وبإيمانها وبحياتها ، وارتبطت من مدة عام مع زميلة لي في العمل بعاطفة حب ، وهى مؤمنة إنجيلية من أسرة طيبة خادمة بالكنيسة الإنجيلية في أنشطتها المختلفة . وبدأت أتقدم للزواج منها بعد أن استرحت إليها من كل وجه ، ولكن كنيستي طلبت منها أن تتعمد ثانية حتى تجرى لنا مراسيم الزواج ، وهنا رفضت هي وأسرتها تمامًا فكرة العماد لأنها تعمدت وهي طفلة بكنيستها ، وهكذا توقف الحال عند هذا الحد ، ونحن نعيش في صراع وتمزق بين الحب الذي يجمعنا ، وبين فكرة إعادة المعمودية التي تهدد بتفريقنا .

ويبدو أن هذه المشكلة شدَّت الصديق السادس والأخير ، ودفعته وشجعته أن يخرج من صمته ويتحدث . قال إنني أواجه مشكلة من نوع آخر ، فأنا هنا فى أجازة لمدة ستة أسابيع لأرض الوطن ، أعود بعدها إلى المهجر حيث أعيش أنا وأسرتي في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عامين . وأنا عضو إنجيلي متقدم في الكنيسة ، تعمدت وأنا طفل ، واختبرت الإيمان والعلاقة الشخصية مع الرب يسوع في كنيستي التى قادتني إلى النمو في النعمة وفي المعرفة المتزايدة للرب ولكلمته ، وفتحت لي ولأسرتي أبواب الخدمة في المجالات المختلفة حسب ما أعطانا الرب من مواهب . ولكن الظروف دفعتني إلى الهجرة إلى أمريكا منذ عامين كما ذكرت ، وفورًا بحثنا عن كنيسة نستريح إليها في عبادتها وخدمتها وفكرها ،، ووجدنا كنيسة ممتازة حية نامية استرحنا إليها وأردنا الارتباط بها . وطلبنا ذلك من الراعي

والمسئولين فرحبوا جدًا بنا ، لكنهم طلبوا بعد أن استراحوا إلى إيماننا وحياتنا ، أن نتعمد حتى ننضم إلى الكنيسة وإلى خدمتها لأنها كنيسة معمدانية . وهنا سقطنا كأسرة في صراع ، لقد تعمدنا كصغار في كنيستنا الإنجيلية في مصر ، فهل يمكن أن نتعمد ثانية ؟ . وكان وقت الأجازة قد حان ، فأرجأنا اتخاذ القرار إلى ما بعد العودة ، وها نحن ما زلنا في حيرة كاملة .

وهكذا تبدو الكتابة عن المعمودية ، القضية المتفق عليها من الجميع ، والمختلف حولها من الكل ، كتابة شاقة وشائكة ، ولكنها في نفس الوقت حتمية وضاغطة وممتعة أيضًا . فهناك العديد من الأسئلة المثارة في ذهني حول المعمودية من سنوات طويلة ، وأنا أحاول بكل الجهد البحث عن إجابة لها . وعندما جاءت فرصة كتابة هذا الكتاب أمسكت هذه الأسئلة بي بشدة ، أذكر منها على سبيل المثال :

- ما هو المفهوم الكتابي واللاهوتي للمعمودية ؟
- ما العلاقة بين المعمودية والخلاص والحياة الجديدة ؟
- ما هو مكان معمودية الأطفال في التعليم الكتابي ؟
- هل يمكن إعادة المعمودية ؟
- معمودية الماء ومعمودية الروح القدس ، هل هما معموديتان ؟ أم معمودية واحدة ؟
- ما العلاقة بين « التثبيت » الذي تمارسه بعض الكنائس ، و « التكريس » الذي تمارسه كنائس أخرى ، بالمعمودية المسيحية ؟
- وما هى الصلة بين المعمودية والعشاء الرباني ؟

ـــ وهل تكون المعمودية بالتغطيس ؟ أم بالتغطيس والسكب والرش ؟

هذه الأسئلة وغيرها الكثير ، والتي تجدها في أول كل فصل من فصول هذا الكتاب ، أحاطت بي تمامًا ، وجعلتني مشدودًا ومستغرقًا بالكامل في محاولة الإجابة عنها ، من أول كلمة في الفصل الأول إلى آخر كلمة في الفصل الأخير .

لقد حاولت جهدي أن أقدم هذه الدراسة بصورة موضوعية ودقيقة وشاملة بقدر ما أستطيع ، ولقد تعلمت الكثير جدًا ليس فقط من الكتب التي درستها ، بل من كل الأصدقاء الذين ناقشتهم ، أو الذين قرأوا مخطوطة هذا الكتاب ، وكانت ملاحظاتهم وتعليقاتهم سبب إثراء حقيقي لفكري وقلبي معًا .

على أنني أكون شاكرًا من القلب ، كل قاريء عزيز لهذه المحاولة المتواضعة لدراسة هذا الموضوع الكبير ، خاصة إذا تكرم بالكتابة لي بأي تعليق أو ملاحظة أو إضافة ، حتى يمكن تدارك هذا ـــ إن لزم الأمر ـــ عند إعادة طبع هذه الدراسة فى المستقبل ، لتكمل الفائدة .

المؤلف

الفصل الأول

معمودية يوحنا ومعمودية يسوع

يمثل يوحنا المعمدان حلقة الوصل بين العهدين القديم والجديد ، فهو يعتبر رسول « العهد » القديم ، الذي أرسل إلى الجيل الأخير لهذا العهد[1] . ولقد عرف هو نفسه ورسالته بقوله إنه صوت الصارخ في البرية لإعداد طريق الرب « صوت الصارخ في البرية أعدوا طريق الرب . قوموا في القفر سبيلًا لإلهنا . » (إشعياء ٤٠ : ٣) . « صوت صارخٍ في البرية أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة » (مرقس ١ : ٣) . وهو الذي أعلن عن المسيا ، وأول من عرف أنه يسوع الناصري . فما هى إذن رسالة المعمدان ؟ وماذا تعني معموديته ؟

فكر مرقس

يقدم إنجيل مرقس المعنى الكامل لمعمودية يوحنا ولرسالته ، كما أننا نجد بعض الإضافات عند البشيرين الآخرين . ففي (مرقس ١ : ٤ و ٥) يقول البشير « كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا وخرج إليه جميع كورة اليهودية وأهل أورشليم واعتمدوا جميعهم منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم » . وهنا نجد أن الملامح البارزة لمعمودية يوحنا ورسالته هى الاعتراف والتوبة وغفران الخطايا .

فكر متى

أما متى فيضيف لرسالة المعمدان بعدًا اسخاتولوجيًا(*) ، إذ يربط بين التوبة وبين ملكوت السموات فيقول « وفي تلك الأيام جاء يوحنا

(*) الأسخاتولوجي ما يتعلق بالأيام الأخيرة ومجيء المسيح في الجسد وتحقيق ملكوت الله سواء في الحاضر أو في المستقبل .

المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلًا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ١ و ٢) . والفرق بين المعمدان فى هذا النداء وبين معاصريه من اليهود ، هو أنه لم يتفق معهم فقط في أن التوبة تمهد الطريق لمجيء الملكوت ، بل أضاف أن ملكوت السموات قد اقترب « at hand » ، إنه عتيد أن يظهر ، سواء أقبل الناس إلى التوبة أم لم يقبلوا . لكن التوبة هى تذكرة الدخول إلى هذا الملكوت ، وعليهم « الآن » أن يتوبوا إن أرادوا الدخول .

فيوم مجيء المسيا ، يوم الرب ، آت لا محالة ، وهو يوم الدينونة لغير التائبين ، كما هو يوم البركة لكل الذين يتجاوبون مع ندائه . ودخول الملكوت ليس أمرًا وراثيًا ، لمجرد كونهم أبناء إبراهيم بما له من امتيازات ضخمة ، ولكن لكل من يستمع إلى صوت الله ويلبي دعوة التوبة . فملكوت الله لا يتوقف على تناسل طبيعي ، ولكن الله يعطيه لمن يشاء ، « فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي . فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا . لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم . والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار » (متى ٣ : ٧ — ١٠) .

فكر لوقا

وإذا كان متى أضاف إلى رسالة المعمدان ومعموديته بُعدًا اسخاتولوجيًا ، فلقد أضاف لوقا بُعدًا عمليًا أخلاقيًا . فالتوبة فى

مفهومه ، مختلفة أيضًا عنها عند معاصريه . فلقد ظنوا أن التوبة توبة طقسية من تطهير وغسلات وصيامات وصلاة ، أما هو فقد فهمها على النحو النبوي على أنها توبة أخلاقية عملية .

ويعلن لوقا ذلك في حادثة مجيء أفراد من طبقات مختلفة من الشعب ليسألوه عما يفعلونه « وسأله الجموع قائلين ماذا نفعل فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا . وجاء عشارون أيضًا ليعتمدوا فقالوا له يا معلم ماذا نفعل فقال لهم لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم . وسأله جنديون أيضًا قائلين وماذا نفعل نحن فقال لهم لا تظلموا أحدًا ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائفكم » (لوقا ٣ : ١٠ — ١٤) . فالتوبة الأخلاقية أعمق وأبعد غورًا من التوبة الطقسية ، إنها توبة الصلاح والإصلاح الأخلاقي والاجتماعي التي نادى بها الأنبياء قديمًا (انظر إرميا ٧ : ٢١ — ٢٣ ، هوشع ٦ : ٦ ، مزمور ٥١ : ٦) .

على أن توبة المعمدان الأخلاقية والعملية ، تتفق في جانب منها مع المفهوم اليهودي للأخلاق ، وهو الجانب السلبي الذي تتصف به . فهي في غالبيتها سلبية ، بمعنى أنها نهي وليست أمرًا ، أي يغلب عليها عبارات مثل : لا تفعل ذلك ، ولا تتمادى في هذا .(٢) . لكن إيجابية أخلاق يسوع تتضح بكل جلاء في كلمة واحدة « المحبة » ، فلقد وضع السيد كل الناموس في هذه العبارة : محبة الله ومحبة القريب .

معمودية يوحنا ومعمودية الدخلاء

كذلك نرى أن معمودية يوحنا كانت تختلف عن معمودية

الدخلاء الطقسية التي كان يجب أن الدخيل الأممي يتعمد بها لكي يصبح يهوديًا ، حتى يتطهر من أدران الأمم ونجاساتهم . أما معمودية يوحنا فقد كان لها صلة بملكوت الله ، إنها معمودية لمغفرة الخطايا للإعداد للملكوت ، يحتاج إليها الجميع من يهود وأمم . قبلها تحدث التوبة ، ثم تأتي المعمودية كختم على غفران الخطايا . فالخطوة الأولى في طريق الملكوت هى التوبة أما الخطوة الثانية فهى المعمودية .

الماء والروح والنار
بين الأنبياء والمعمدان

وفي الوقت نفسه اعتبر يوحنا معموديته عمّلا رمزيًا إعداديًا إلى ما سوف يفعله المسيا ، عندما قال « أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهّلا أن أحمل حذاءه . هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن . وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » (متى ٣ : ١١ و ١٢) وهنا نلاحظ أن المعمدان استخدم ثلاثة رموز من الأنبياء ، عندما يتحدث عن المستقبل الذي يعد له ويشير إليه . اثنان من هذه الرموز استخدمها معا حزقيال ، وهما الماء والروح (أو الريح لأن كلمة الروح في العبرية واليونانية تأتي بمعنى الريح أو النَفَس) ، يقول حزقيال « وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم إلى أرضكم . وأرش عليكم ماءً طاهرًا فتطهرون . من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم . وأعطيكم قلبًا جديدًا وأجعل روحًا جديدًا في داخلكم وأنزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيكم قلب لحم وأجعل روحي في داخلكم وأجعلكم تسلكون

في فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها » . (حزقيال ٣٦ : ٢٤ — ٢٧) .

أما يوحنا المعمدان فيضيف النار إلى الماء والروح ، إن معموديته تشمل الدينونة كما تحتوي على الرحمة . ففى العهد القديم نجد النار تعني عادة إما الخراب أو التطهير ، وربما كان المعمدان يفكر فى نهر النار الخارج من عرش الرب ، إذ يقول دانيال « كنت أرى أنه وُضِعَت عروش وجلس القديم الأيام . لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة . نهرُ نارٍ جرى وخرج من قدامه . ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوفاً قدامه . فجلس الدين وفتحت الأسفار » (دانيال ٧ : ٩ — ١٠)[٣] .

ويجد المعمدان نفس المفهوم في نبوة ملاخي عندما يقول « ها أنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به هوذا يأتي قال رب الجنود . ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره لأنه مثل نار الممحص ومثل أشنان القصار . فيجلس ممحصًا ومنقيًا للفضة فينقي بني لاوي ويصفيهم كالذهب والفضة ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر » (ملاخي ٣ : ١ — ٣) . وإذا لم يسمح بنو لاوي للسيد أن يطهرهم « فهوذا يأتي اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشًا ويحرقهم اليوم الآتي قال رب الجنود فلا يبقي لهم أصلًا ولا فرعًا . ولكن أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها فتخرجون وتنشأون كعجول الصيرة وتدوسون الأشرار

لأنهم يكونون رمادًا تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود » (ملاخي ٤ : ١ — ٣) .

يسوع والمعمدان

ثم يشير ملاخي إلى المعمدان كإيليا المزمع أن يأتي (٣ : ١ ، ٤ : ٥ و ٦) . كما أن يسوع وصف يوحنا بعد ذهاب تلميذيه بأنه إيليا (متى ١١ : ٧ — ١٤) ، وشارك اليهود اعتقادهم أن إيليا سوف يأتي قبل المسيا برسالة خاصة وهي رد قلوب الأبناء على الآباء . لكن يسوع أشار أن إيليا جاء ليعد الطريق ويهيء الناس لقبول الملكوت ، وهذا ما أوضحه زكريا في ترنيمته التي ترنم بها يوم ميلاد يوحنا عندما قال : « وأنت أيها الصبي نبي العلى تدعى لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام » (لوقا ١ : ٧٦ — ٧٩) .

وبعد حادثة التجلي « سأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم . حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان » (متى ١٧ : ١٠ — ١٣) .

وهذا ما أعلنه المسيح في سؤاله لليهود ، الذين قالوا له عندما قام

بتطهير الهيكل بأى سلطان تفعل هذا ، وهنا سألهم يسوع « معمودية يوحنا من أين كانت من السماء أم من الأرض ؟ » . لقد أعلن يسوع بذلك أن معمودية يوحنا هى شهادة وإشارة إليه وإلى مجيئه .

معمودية يسوع

إلى معمودية يوحنا جاء يسوع ، ويذكر ذلك البشير متى حين يقول : « حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ولكن يوحنا منعه قائلاً أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي . فأجاب يسوع وقال له اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر . حينئذ سمح له فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وأتيا عليه . وصوت من السموات قائلاً هذا هو إبني الحبيب الذى به سررت » (متى ٣ : ١٣ — ١٧) . (انظر مرقس ١ : ٩ — ١١ ، لوقا ٣ : ٢١ و ٢٢ ، يوحنا ١ : ٢٩ — ٣٤) .

والسؤال الآن : ما معنى أن يعتمد المسيح من يوحنا ؟ ، وما معنى عبارة « نكمِّل كل بر » التى أجاب بها يسوع . إن العهد الجديد يشهد أن يسوع « بلا خطية » (عبرانيين ٤ : ١٥) ، إذن ما المقصود بأن يكمل يسوع كل بر؟ .

يقول Beasley-Murray [٤] إننا نستطيع أن نحصل على المعنى المقصود ، إذا قارنا بين إجابة يسوع على المعمدان ، وبين ما جاء في إشعياء وفي رسالة العبرانيين ، عن يسوع وعن إرساليته . لقد رسم إشعياء صورة المسيا المتألم عندما قال : « محتقر ومخزول من الناس

رجل أوجاع ومختبر الحزن وكمَستَّر عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به . لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصابًا مضروبًا من الله ومزلولا وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا » (إشعياء ٥٣ : ٣ ــ ٥) .

كما أن كاتب رسالة العبرانيين تحدث عن نفس الموضوع ، عن يسوع كالمسيا إذ قال : « فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضًا كذلك فيهما لكي يُبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس ... من ثم كان ينبغي أن يشبه اخوته في كل شيء لكي يكون رحيمًا ورئيس كهنة أمينًا في ما لله حتى يكفر خطايا الشعب لأنه فيما هو قد تألم مجربًا يقدر أن يُعين المجربين (عبرانيين ٢ : ١٤ و ١٧ و ١٨) .

إن يسوع حقاً بلا خطية ، ولكنه لكي يخلص الخطاة ويحقق هدف الله الآب ، لا بد أن يأخذ مكانه معهم [٥] ، ليكون الممثل الحقيقي للبشرية المفدية .

لقد كانت معمودية يسوع من المعمدان ، ليكمل كل بر ، بمعنى أن يقف بجوار الخطاة ومعهم ، وهو الموقف الذى أخذه الرب يسوع دائمًا ، إذ كان « يقبل الخطاة ويأكل معهم » (لوقا ١٥ : ١ و ٢) .

على أن مايكل جرين M . Green [٦] أضاف إلى هذا المعنى أربعة أهداف ، الهدف الأول « مسحة الروح القدس » « فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . وإذا السموات قد انفتحت له فرأى

روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه » (متى ٣ : ١٦) . وهي اتمام لنبوة إشعياء « ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب » (إشعياء ١١ : ٢) .

والهدف الثاني هو « تأكيد البنوة » « وصوت من السموات قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذى به سررت » (متى ٣ : ١٧) . وفي المعمودية نرى نحن معنى البنوة ، لكنها ليست كالتي للرب يسوع . إنه « ابن الله » بالطبيعة لكن بنوتنا بالنعمة . إننا عندما نقبل روحه ، يشهد روحه فينا أننا أولاد الله ، ولذلك يهتف الرسول بولس « إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضًا للخوف بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب . الروح نفسه أيضًا يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله . فإن كنا أولاد الله فإننا ورثة أيضًا ورثة الله ووارثون مع المسيح إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضًا معه » (رومية ٨ : ١٥ — ١٧) .

أما الهدف الثالث فهو أن معمودية يسوع تعني « طريق العبودية » . إن ما سمعه يسوع في معموديته مقتبس من جزئين من العهد القديم ، « أنت ابني » من (مزمور ٢ : ٧) ، لكن « الذي به سررت » مقتبسة من إشعياء عن عبد الرب المتألم ، وهى أول قصائد العبد المتألم في إشعياء إذ يقول « هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي . وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم » (إشعياء ٤٢ : ١) .

وأخيرًا أضاف الهدف الرابع وهو « التكريس للخدمة » هذه الخدمة التي بدأت تحدياتها بعد المعمودية مباشرة .

لكن هذه المعمودية تؤدي بنا إلى معمودية أخرى قام بها المسيح ، هى معمودية المسيح الخاصة عندما يقول « ولي صبغة أصطبغها . وكيف أنحصر حتى تكمل » (لوقا ١٢ : ٥٠) . وكلمة « صبغة » هى نفس الكلمة التي تترجم معمودية ، لذلك هو يريد أن يقول إن له معمودية يعتمد بها ، هذه المعمودية هى موته على صليب الجلجثة ، عندما « حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحن للبر ... » (١ بطرس ٢ : ٢٤) .

هنا أكمل يسوع كل بر في خضوعه لإرادة الرب ، ليس فقط عندما اعتمد من يوحنا ، بل في معموديته الخاصة ، في موته على خشبة العار بين لصين ، لكي يحرر ويخلص البشر من عبودية الخطية والموت ، ويأتي بهم إلى أفضل حياة . لقد كان يسوع يدرك رهبة وقسوة عملية الصلب بكل أهواله ، وهذا واضح من كلمة « انحصر » أي أنه يعرف ما سيلاقيه ، لكنه قبل ذلك راضيًا خاضعًا لإرادة الآب التي هى إرادته ، ومعبرًا عن مدى حبه للناس ، هذا الحب الذي يعكس محبة الآب .

المعمودية المسيحية

وهكذا تدخل بنا معمودية المسيح إلى المعمودية المسيحية ، التي هى موضوع هذا الكتاب ، بل وتعلمنا الكثير عن المعمودية المسيحية . إنها برهان الروح ، وعلامة البنوة ، ودعوة السير في طريق عبد الرب ، والتزام الخدمة . كما أنها معمودية التوبة ، معمودية الصليب ، ومعمودية الروح القدس . إننا في المعمودية نسير مع يسوع في ماء التوبة ، ونقبل لأنفسنا البر الذي حققه لنا على

الجلجثة ، ونفتح قلوبنا على الروح القدس ليعدنا لخدمته . هذا لا يعنى أن المعمودية المسيحية من نفس نوع معمودية المسيح ، ولكن معمودية المسيح تعلمنا الكثير عن معمودية المؤمنين كما سنرى في الفصول التالية .

الفصل الثاني

المعمودية المسيحية
والمفهوم الكتابي واللاهوتي

قدم لنا الوحي مفهوم المعمودية من خلال الكلمة مرتبطًا ببعض الحوادث الهامة في العهد القديم . وإن استطعنا أن نقف أمام كل حادثة من هذه الحوادث وكيف جاءت في العهد الجديد في إطار مفهوم المعمودية ، لأصبحت الصورة واضحة في أذهاننا . وسوف نأخذ ثلاثة حوادث هامة ارتبطت بالحديث عن المعمودية ، تحدث عنها العهد القديم والجديد معًا . الحادث الأول : هو العهد مع إبراهيم ، الحادث الثاني : هو المرور في البحر الأحمر ، الحادث الثالث : هو العهد مع نوح والفُلك . وسوف نجد في الحديث عن كل حادث من هذه الحوادث في العهدين جانبًا من المفهوم الكتابي للمعمودية .

أولاً العهد مع إبراهيم

النص في العهد القديم :

وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ٱبْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ ٱلرَّبُّ لِأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ أَنَا ٱللهُ
ٱلْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا. ٢فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا. ٣فَسَقَطَ
أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ ٱللهُ مَعَهُ قَائِلًا. ٤أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ
مِنَ ٱلْأُمَمِ. ٥فَلَا يُدْعَى ٱسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ ٱسْمُكَ إِبْرٰهِيمَ. لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا
لِجُمْهُورٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ. ٦وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا. وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. ٧وَأُقِيمُ
عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. لِأَكُونَ إِلٰهًا
لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ كُلَّ أَرْضِ
كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلٰهَهُمْ
٩وَقَالَ ٱللهُ لِإِبْرٰهِيمَ وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي. أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي
أَجْيَالِهِمْ. ١٠هٰذَا هُوَ عَهْدِي ٱلَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. يُخْتَنُ

مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ. ١١ فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ. فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. ١٢ اِبْنَ
ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ. وَلِيدُ ٱلْبَيْتِ وَٱلْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ٱبْنِ علا
غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. ١٣ يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَٱلْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ. فَيَكُونُ عَهْدِي وليا
١٤ فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. ١٤ وَأَمَّا ٱلذَّكَرُ ٱلْأَغْلَفُ ٱلَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ وليد
تِلْكَ ٱلنَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي شنه

(تكوين ١٧ : ١ — ١٤)

النص في العهد الجديد :

٨ اُنْظُرُوا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ يَسْبِيكُمْ بِٱلْفَلْسَفَةِ وَبِغُرُورٍ بَاطِلٍ حَسَبَ تَقْلِيدِ ٱلنَّاسِ حَسَبَ
أَرْكَانِ ٱلْعَالَمِ وَلَيْسَ حَسَبَ ٱلْمَسِيحِ. ٩ فَإِنَّهُ فِيهِ يَحِلُّ كُلُّ مِلْءِ ٱللاَّهُوتِ جَسَدِيًّا. ١٠ وَأَنْتُمْ
مَمْلُوؤُونَ فِيهِ ٱلَّذِي هُوَ رَأْسُ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ. ١١ وَبِهِ أَيْضًا خُتِنْتُمْ خِتَانًا غَيْرَ مَصْنُوعٍ
بِيَدٍ بِخَلْعِ جِسْمِ خَطَايَا ٱلْبَشَرِيَّةِ بِخِتَانِ ٱلْمَسِيحِ. ١٢ مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي ٱلْمَعْمُودِيَّةِ ٱلَّتِي فِيهَا
أُقِمْتُمْ أَيْضًا مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ ٱللهِ ٱلَّذِي أَقَامَهُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ.

(كولوسي ٢ : ٨ — ١٢)

الله والإنسان

تختلف معرفة الله في المسيحية عنها في الديانات الأخرى . ففي أي ديانة أخرى جاءت معرفة الله عن طريق إعلانه لإرادته للناس في

هيئة تعاليم ، ولكن في المسيحية جاءت معرفة الله عن طريق إعلانه لنفسه . ولقد أعلن الله نفسه عن طريق أعمال قام بها « God in Acts » أول هذه الأعمال هو الخلق (رومية ١ : ١٩ و ٢٠) « لأن ما يقدر البشر أن يعرفه عن الله جعله الله واضحًا جليًا له . فمنذ خلق الله العالم وصفات الله الخفية أي قدرته الأزلية وأبديته وألوهيته واضحة جلية تدركها العقول في مخلوقاته فلا عذر لهم إذًا . والعمل الثاني لإعلان الله لنفسه هو الفداء . ولكي نربط الخلق والفداء معًا يجب أن نأخذ عنصرًا مشتركًا بين الاثنين ، هذا هو الفداء . ولكي نربط الخلق والفداء معًا يجب أن نأخذ عنصرًا مشتركًا بين الاثنين ، هذا العنصر المشترك هو الإنسان . فالإنسان جزء من الخليقة ، ولكنه في نفس الوقت مركز دائرة الفداء . إذن عندما ندرس المفهوم الكتابي لله لا يكتمل هذا المفهوم إلا إذا درسنا عن الإنسان . فالخليقة خلقت لأجل الإنسان ، والفداء هو عمل متبادل بين الله والإنسان ، هو التقاء الله بالإنسان أو مواجهة الله مع الإنسان .

ولقد خلق الله الخليقة بكلمته . وكلمة الله تحمل في ذاتها قوته وقدرته العاملة « بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها » (مز ٣٣ : ٦) . وكلمة الله القادرة هى المسيح كما هو واضح في (يوحنا ١ : ١ — ٥) « في البدء كان الكلمة ... كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ... » ويتكرر نفس المعنى في (عبرانيين ١ : ٢ و ٣) « كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه ... الذى به أيضًا عمل العالمين ... حامل كل الأشياء بكلمة قدرته » .

ولقد توج الله الخليقة بخلق الإنسان . وفي (تكوين ١ : ٢٦ و ٢٧) يقول الله « نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... » . والسر في خلق الإنسان على صورة الله أن تكون هناك أرض مشتركة ولغة مشتركة بين الله والإنسان ، هذه اللغة المشتركة هى التي نسميها في العهد الجديد الشركة . إن الهدف هو الشركة الملذة بين الله والإنسان . ولذلك نقرأ في (تكوين ٣ : ٨) أنه « عند هبوب ريح النهار ... » أى بعد الظهر عندما يكون آدم استيقظ من نومه ، كان الله يأتي ليمارس الشركة الحلوة بالحديث مع آدم . إنها نوع فريد من الصداقة الرائعة .

لكن هذه الصداقة الرائعة لم تدم . لقد أخطأ آدم كما نعرف من قصة الكتاب ، وطرد من الجنة ، وانفصل عن الله ، وانتهت الشركة ، وتشوهت الصورة ، وحكم عليه بالموت ، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع .

لم يقف الله مكتوفًا أمام مأساة الإنسان ، لكنه أراد أن يعيده إليه ، إلى الصورة والشركة الأولى ، ولكن بطريقة تدريجية . ولتوضيح ذلك إليك المثل التالي ، اصطدمت فتاة بعربة مسرعة ، وكانت نتيجة الصدمة الفقدان التام لذاكرة الفتاة . ووضعت الفتاة تحت رعاية طبية مع مجموعة من العلماء ، واتفق الجميع على محاولة إعادة ذاكرتها بالتدريج شيئًا فشيئًا إلى أن تعود إلى حالتها الأولى .

إن هذه الحادثة توضح لنا بعض الشيء ما عمله الله للإنسان بطريقة تدريجية انحصرت في بعض المراحل منها :

العهد مع إبراهيم

ارتكز إيمان الشعب القديم على عنصرين رئيسيين الإيمان في الله ، والصلة الجديدة التي دخل فيها الله مع هذا الشعب . هذه الصلة سميت « العهد » وهى الكلمة العبرية « بريت » التي تعني « يربط معًا » . فالعهد هو ارتباط أو « اتحاد يقام على قسم » فإنه لما وعد الله ابراهيم إذ لم يكن له أعظم يقسم به أقسم بنفسه . قائلاً إني لأباركنك بركة وأكثرنك تكثيرًا . وهكذا إذ تأنى نال الموعد . فإن الناس يقسمون بالأعظم ونهاية كل مشاجرة عندهم لأجل التثبيت هى القسم . فلذلك إذ أراد الله أن يظهر أكثر كثيرًا لورثة الموعد عدم تغير قضائه توسط بقسم حتى بأمرين عديمي التغير لا يمكن أن الله يكذب فيهما تكون لنا تعزية قوية نحن الذين التجأنا لنمسك بالرجاء الموضوع أمامنا » (عبرانيين ٦ : ١٣ ــ ١٨)(٧) .

هكذا كان العهد بين الله وإسرائيل ، بدأه الطرف الأعظم والأمجد ، وعليه بنيت كل العلاقة وكل التاريخ ، فهو عهد فدائى ، بني على أساس تاريخي ، تاريخ تدخل الله في حياتهم . وهذا الأساس يؤكد اختيار الله لهم ، وهو اختيار مبني على عمل تاريخي قام به الرب نفسه « أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلي . فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب فإن لي كل الأرض وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة هذه هى الكلمات التي تكلم بها بني إسرائيل (خروج ١٩ : ٤ ــ ٦) ، « ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر

الشعوب بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم أخرجكم الرب بيد شديدة وفداكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر » . (تثنية ٧ : ٧ و ٨) .

وهذا العهد نجده في مرحلته الأولى في (تكوين ١٥) مع إبراهيم « وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها . فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم إني أرثها . فقال له خذ لي عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشًا ثلثيًا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه . وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها . ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبرام سبات . وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال لإبرام أعلم يقينًا أن نسلك سيكون غريبًا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم . فيذلونهم أربع مئة سنة . ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها . وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة . وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة . وفي الجيل الرابع يرجعون إلي ههنا . لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً . ثم غابت الشمس فصارت العتمة . وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع . في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلاً . لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » (تكوين ١٥ : ٧ — ١٨) .

ثم تطورت فكرة العهد في (تكوين ١٧ : ١ — ١٤) ، الجزء المذكور في أول هذه الفكرة ، والذي فيه نرى الختان كعلامة لهذا العهد ، الذي يسمي « عهد الختان » (أعمال ٧ : ٨) . والختان

يمثل فكرة الألم وحمل اللعنة ، والتكريس ، والهوية ، والتبرير ، والمؤهلات الروحية[٨] . وهكذا جاء اسحق ابن الموعد ، وختن في اليوم الثامن (تكوين ٢١ : ٤) ، ثم اجتاز الختان الكامل أو التقديم الكامل (تكوين ٢٢) ، خاصة الجزء الذي يقول « فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بني هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب . ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم . فقال هأنذا . فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكًا في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضًا عن ابنه . فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يراه حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يُرى » (تكوين ٢٢ : ٩ — ١٤) .

عهد النعمة هو عهد الكلمة

كان العهد عهد نعمة من الأعظم للأقل ، وعهد كلمة أى أن الله أعلن إرادته في كلمة . وهكذا جاء الناموس بعد ذلك ، ناموس العهد . جاء في إطار فدائي ، كما يظهر في (خروج ١٩) ، عندما افتدى الله شعبه ، وأخرجهم من العبودية من أرض مصر ، وأعطاهم الناموس . وفداء الله للشعب هنا كان فداءً صحيحًا ، ولكنه فداء جسدى من عبودية أرض مصر ، كما أنه يشير بالتالي إلى عملية كبرى ، يقوم بها الله في المستقبل ، لفداء الإنسان في شخص المسيح (غلاطية ٣ : ٢١ و ٢٤ ، رومية ٧ : ٧ — ٢٥ ، رومية ٨ : ٣) .

وعندما جاء الناموس ، جاء بالوصية ، وصية النعمة التي تعلن الله ، كما جاء بالوعد بالبركة لمن يثبت في الوعد ويطيع الوصية . لكن الشعب القديم ترك إعلان العهد وأمسك بالعهد نفسه ، وتشوهت الصورة من عهد نعمة إلى فرائض وطقوس خارجية ، وضاعت الفكرة الروحية العميقة في العهد وسط بحر من الوصايا .

وهنا جاء المسيح ، نسل إبراهيم ليكمل الناموس ، وليطبق ويتمم العهد مع إبراهيم . إن البذرة هى العهد مع إبراهيم ، عهد الختان الجسدي بآلامه وبركاته ، المتمثلة في شق الذبائح ، والرعبة المظلمة العظيمة التي وقعت على إبرام ، وتنور الدخان ومصباح النار الذي جاز بين القطع في (تكوين ١٥) . أو المتمثلة في الختان في (تكوين ١٧) وفي النار والحطب والمذبح والسكين واسحق في (تكوين ٢٢) ، هذه الأحداث التي تمثل جلجثة العهد الأول في مرحلتيه .

أقول إن العهد مع إبراهيم كان البذرة ، لكن ثمرة هذا العهد هي المسيح ، بعهده الجديد وبختانه الجديد « ختان المسيح » (كولوسي ٢ : ١١) . هكذا جاء المسيح ليحقق أهداف العهد الأول ، وينشأ المجتمع المفتوح الذي يكون هو فيه « السيد » . أما الارتباط في هذا المجتمع وبه ، فعن طريق الدعوة الإلهية للدخول في العهد ، وليس عن طريق التسلسل النسبي ولذلك يقول الرسول « أيها الأخوة بحسب الإنسان أقول ليس أحد يبطل عهدًا قد تمكن ولو من إنسان أو يزيد عليه . وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله . لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد وفي نسلك الذي هو المسيح . وإنما أقول هذا إن الناموس الذي صار بعد أربعمئة

وثلاثين سنة لا ينسخ عهدًا قد سبق فتمكن من الله نحو المسيح حتى يبطل الموعد . لأنه إن كانت الوراثة من الناموس فلم تكن أيضًا من موعد ولكن الله وهبها لإبراهيم بموعد . فلماذا الناموس قد زيد بسبب التعديات إلى أن يأتي النسل الذي قد وعد له مرتبًا بملائكة في يد وسيط . وأما الوسيط فلا يكون لواحد ولكن الله واحد . فهل الناموس ضد مواعيد الله حاشا لأنه لو أعطى ناموس قادر أن يحيي لكان بالحقيقة البر بالناموس . لكن الكتاب أغلق على الكل تحت الخطية ليعطي الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون » (غلاطية ٣ : ١٥ ــ ٢٢) .

عهد النعمة الواحد

هذا العهد ، عهد الإيمان والنعمة ، الذي أمسك الشعب القديم به فصانهم ووحدهم ، إذ كان أقوى من كل محاولات التفتيت والتمزق التي تعرضوا لها في تاريخهم . هو نفسه عهد النعمة الذي سرى وجرى في نهر التاريخ كله ، وفي بحر الكتاب كله بعهديه القديم والجديد ، حتى جاء الوريث الشرعي فأكمله ، في نور شمس ساطعة ، في يسوع الذي جاء يكرز ببشارة الملكوت ويقول « قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مرقس ١ : ١٤ و ١٥) . هكذا نرى أن الكتاب بعهديه لا يتكلم عن عهدين ، بل يعلن عهدًا واحدًا هو عهد النعمة ، في مراحله المتدرجة ، وبطرق مختلفة طبقًا لهذه المراحل[٩] .

علامة العهد

في سفر التكوين رأينا العهد بين الله وبين إبراهيم الذي يمثل

الشعب ، كما نرى علامة الدخول في العهد هى الختان . وفي العهد الجديد في كولوسي يقدم الرسول بولس المضمون القديم في إطار جديد ، إنه كما كان الختان علامة على الدخول في العهد مع الله جاءت المعمودية في العهد الجديد علامة على دخولنا في العهد مع الله بإيماننا بعمله وبقبولنا له ، وباتحادنا بالرب يسوع بموتنا وبقيامتنا معه . بمعنى أننا أصبحنا ضمن أبناء العهد ، وأننا صرنا ملكًا للرب بقبولنا له واتحادنا به وثقتنا وإيماننا في عمله . وهذا المعنى تبرزه الترجمة العربية الجديدة لحديث الرسول بولس السابق في كولوسي فتقول :

« وفي المسيح كان ختانكم ختانًا ، لا بالأيدي ، بل بنزع جسم الخطايا البشري ، وهذا هو ختان المسيح فأنتم عندما تعمدتم في المسيح دفنتم معه وقمتم معه أيضًا ، لأنكم آمنتم بقدرة الله الذي أقامه من بين الأموات . كنتم أمواتًا بخطاياكم وبكونكم غير مختونين في الجسد ، فأحياكم الله مع المسيح وصفح لكم عن جميع خطاياكم » .

(كولوسي ٢ : ١١ — ١٣)

هذا هو المعنى الكبير والرائع أن كل من يعمد يتحد بالرب فالمعمودية هى العلامة الظاهرة على عمل وبركة ونعمة داخلية ، نعمة قبول الرب يسوع والاتحاد به والإيمان بعمله ، وبالتالي الموت معه والقيامة معه في جدة الحياة .

ثانيًا : المرور في البحر الأحمر

النص فى العهد القديم :

١٥ فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى مَا لَكَ تَصْرُخُ إِلَيَّ. قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَرْحَلُوا. ١٦ وَٱرْفَعْ
أَنْتَ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى ٱلْبَحْرِ وَشُقَّهُ. فَيَدْخُلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسْطِ ٱلْبَحْرِ عَلَى ٱلْيَابِسَةِ.
١٧ وَهَا أَنَا أُشَدِّدُ قُلُوبَ ٱلْمِصْرِيِّينَ حَتَّى يَدْخُلُوا وَرَاءَهُمْ. فَأَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَكُلِّ جَيْشِهِ
بِمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ. ١٨ فَيَعْرِفُ ٱلْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ حِينَ أَتَمَجَّدُ بِفِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ
وَفُرْسَانِهِ. ١٩ فَٱنْتَقَلَ مَلَاكُ ٱللهِ ٱلسَّائِرُ أَمَامَ عَسْكَرِ إِسْرَائِيلَ وَسَارَ وَرَاءَهُمْ. وَٱنْتَقَلَ
عَمُودُ ٱلسَّحَابِ مِنْ أَمَامِهِمْ وَوَقَفَ وَرَاءَهُمْ. ٢٠ فَدَخَلَ بَيْنَ عَسْكَرِ ٱلْمِصْرِيِّينَ وَعَسْكَرِ
إِسْرَائِيلَ وَصَارَ ٱلسَّحَابُ وَٱلظَّلَامُ وَأَضَاءَ ٱللَّيْلَ. فَلَمْ يَقْتَرِبْ هٰذَا إِلَى ذَاكَ كُلَّ ٱللَّيْلِ

٢١ وَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى ٱلْبَحْرِ. فَأَجْرَى ٱلرَّبُّ ٱلْبَحْرَ بِرِيحٍ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ ٱللَّيْلِ
وَجَعَلَ ٱلْبَحْرَ يَابِسَةً وَٱنْشَقَّ ٱلْمَاءُ. ٢٢ فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسْطِ ٱلْبَحْرِ عَلَى ٱلْيَابِسَةِ
وَٱلْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. ٢٣ وَتَبِعَهُمُ ٱلْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ
خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى وَسْطِ ٱلْبَحْرِ. ٢٤ وَكَانَ فِي هَزِيعِ ٱلصُّبْحِ أَنَّ ٱلرَّبَّ
أَشْرَفَ عَلَى عَسْكَرِ ٱلْمِصْرِيِّينَ فِي عَمُودِ ٱلنَّارِ وَٱلسَّحَابِ وَأَزْعَجَ عَسْكَرَ ٱلْمِصْرِيِّينَ. ٢٥ وَخَلَعَ
بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّى سَاقُوهَا بِثَقْلَةٍ. فَقَالَ ٱلْمِصْرِيُّونَ نَهْرُبُ مِنْ إِسْرَائِيلَ. لِأَنَّ ٱلرَّبَّ
يُقَاتِلُ ٱلْمِصْرِيِّينَ عَنْهُمْ

٢٦ فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِمُوسَى مُدَّ يَدَكَ عَلَى ٱلْبَحْرِ لِيَرْجِعَ ٱلْمَاءُ عَلَى ٱلْمِصْرِيِّينَ عَلَى مَرْكَبَاتِهِمْ
وَفُرْسَانِهِمْ. ٢٧ فَمَدَّ مُوسَى يَدَهُ عَلَى ٱلْبَحْرِ فَرَجَعَ ٱلْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ ٱلصُّبْحِ إِلَى حَالِهِ ٱلدَّائِمَةِ
وَٱلْمِصْرِيُّونَ هَارِبُونَ إِلَى لِقَائِهِ. فَدَفَعَ ٱلرَّبُّ ٱلْمِصْرِيِّينَ فِي وَسْطِ ٱلْبَحْرِ. ٢٨ فَرَجَعَ ٱلْمَاءُ
وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ ٱلَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي ٱلْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ
وَلَا وَاحِدٌ. ٢٩ وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشَوْا عَلَى ٱلْيَابِسَةِ فِي وَسْطِ ٱلْبَحْرِ وَٱلْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ
يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ

٣٠ فَخَلَّصَ ٱلرَّبُّ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ ٱلْمِصْرِيِّينَ. وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ ٱلْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتًا عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ.

(خروج ١٤ : ١٥ — ٣٠)

النص من العهد الجديد :

١ فَإِنِّي لَسْتُ أُرِيدُ أَيُّهَا ٱلْإِخْوَةُ أَنْ تَجْهَلُوا أَنَّ آبَاءَنَا جَمِيعَهُمْ كَانُوا تَحْتَ ٱلسَّحَابَةِ وَجَمِيعَهُمُ
ٱجْتَازُوا فِي ٱلْبَحْرِ ٢ وَجَمِيعَهُمُ ٱعْتَمَدُوا لِمُوسَى فِي ٱلسَّحَابَةِ وَفِي ٱلْبَحْرِ ٣ وَجَمِيعَهُمْ أَكَلُوا طَعَامًا
وَاحِدًا رُوحِيًّا ٤ وَجَمِيعَهُمْ شَرِبُوا شَرَابًا وَاحِدًا رُوحِيًّا. لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ
تَابِعَتِهِمْ وَٱلصَّخْرَةُ كَانَتِ ٱلْمَسِيحَ. ٥ لٰكِنْ بِأَكْثَرِهِمْ لَمْ يُسَرَّ ٱللهُ لِأَنَّهُمْ طُرِحُوا فِي ٱلْقَفْرِ.
٦ وَهٰذِهِ ٱلْأُمُورُ حَدَثَتْ مِثَالًا لَنَا حَتَّى لَا نَكُونَ نَحْنُ مُشْتَهِينَ شُرُورًا كَمَا ٱشْتَهَى أُولٰئِكَ.
٧ فَلَا تَكُونُوا عَبَدَةَ أَوْثَانٍ كَمَا كَانَ أُنَاسٌ مِنْهُمْ. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ جَلَسَ ٱلشَّعْبُ لِلْأَكْلِ
وَٱلشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ.

(١ كورنثوس ١٠ : ١ — ٧)

نرى في حادثة المرور في البحر الأحمر جانبًا من المفهوم الكتابي للمعمودية . عندما أحس فرعون بهروب الشعب من مصر ، سعى وراءهم واقترب منهم ، ونظر الشعب من بعيد وفوجئوا بفرعون بمركباته وبجيشه ، وخاف الشعب وصرخوا إلى موسى وقالوا له لماذا أتيت بنا إلى هنا لنموت في البرية هل لأنه ليست قبور في مصر ، أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية ... وهكذا تفكك الشعب وتفرق ، وأحسوا بالفزع والضياع في نفس الوقت ... وأبصر موسى وشعر بالمعاناة والمأساة البادية في كلماتهم

ونظراتهم والمرتسمة على وجوههم ، فقال لهم : لا تخافوا قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضًا إلى الأبد . الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون .

وصرخ موسى إلى الله ، وجاء صوت الله إلى موسى أن يرفع عصاه ويمد يده إلى البحر ويشقه . وتقدم الله لحماية شعبه من الخلف ، وفصل بينهم وبين المصريين بعمود السحاب . ثم مد موسى يده على البحر فانشق ، وسار الشعب على اليابسة ، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم ، وبعد خروج الشعب مد موسى يده على البحر فرجع كما كان وغرق فرعون بكل مركباته وفرسانه وجميع جيشه .

وهنا يأتي العهد الجديد فيقتبس الرسول بولس هذه الحادثة بنور جديد في كورنثوس الأولى ليقدم لنا مفهوم المعمودية على أنها اتحاد الشعب بعد تفرق وتفكك وشتات . لقد اعتمدوا لموسى ، أي اتحدوا به واتحدوا ببعضهم البعض كجماعة . إن الرسول بولس يريد أن يقول إن المعمودية هى اتحاد بالرب يسوع كرأس كما اتحد الشعب بموسى ، وهي اندماج المعمد ، وارتباطه وانضمامه إلى شعب الرب الواحد المترابط كما حدث للشعب كله في البحر وفي السحابة .

هذا الجانب يقدم لنا الشركة ، ويظهر الجانب العملي في الارتباط معًا ، هى أن نحيا عمليًا وواقعيًا الشركة التي لنا كجسد الرب . هذا ما رأيناه في الكنيسة الأولى التي عاشت هذه الشركة كما يقول البشير لوقا في سفر الأعمال : « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات . وصار خوف في كل نفس وكانت عجائب

وآيات كثيرة تجري على أيدي الرسل . وجميع الذين آمنوا كانوا معًا وكان عندهم كل شيء مشتركًا . والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج . وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب . وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون » . (أع ٢ : ٤٢ ـــ ٤٧)

وحول هذا المعنى يقول الرسول : « لأننا جميعنا بروح واحد أيضًا اعتمدنا إلى جسد واحد يهودًا كنا أم يونانيين عبيدًا أم أحرارًا وجميعنا سقينا روحًا واحدًا . فإن الجسد أيضًا ليس عضوًا واحدًا بل أعضاء كثيرة » . (١ كورنثوس ١٢ : ١٣ ـــ ١٤) . وفي إشارة أخرى في العهد الجديد لهذا الجانب يقول الرسول : « لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح » (غلاطية ٣ : ٢٧) .

إذًا المعمودية هنا هى ارتباط وهى وحدة وهى شركة مقدسة هى اعتماد للرأس وهى اعتماد للجسد .

ويذكر جون كلفن هذا المفهوم للمعمودية (في كتابه المباديء ـــ المجلد الرابع ـــ الفصل الخامس عشر ، فقرة ١ ، صفحة ١٣١٤) فيقول « إن المعمودية هى علامة على الأساس الذي به نقبل في مجتمع الكنيسة ، فنطعم في المسيح لكي نحسب بين أولاد الله »(١٠) .

ويؤيد هذا المعنى ريجينالد هـ . فولر Reginald H . Fuller (١١) . عندما ربط ظهورات القيامة بالمعمودية . فهو يقول « إن ظهورات

القيامة خلقت الجماعة المسيحية خلقًا جديدًا ، فعندما كانوا يسمعون كرازة الرسل ويؤمنون بالرب ، كانت المعمودية هى الوسيلة التي بها يدمج ويزرع الرب الأعضاء الجدد في الجماعة الموجودة فعلاً » .

ويؤكد نفس المعنى بيركهارت Burkhart (١٢) فيقول « إن المعمودية هى ترحيب واستقبال من خلال الماء للشخص المعمد بين جماعة الرب التي افتداها . ففي سفر الأعمال من يخلص تعني أنه يعمد تعني أنه يضم إلى الجماعة ، هذه كلها عملية واحدة ، وهي كلها تعبر عن ترحيب الرب للمعمد بين شعبه . إن المعمودية ليست عملاً خاصًا ، إنها ترحيب الرب للمعمدين من خلال شعبه وإلى شعبه بصورة علنية ، إنها مرتبطة تمامًا بالجنس المختار ، والكهنوت الملوكي ، والأمة المقدسة ، وشعب الاقتناء الذى يخبر بفضائل الذي دعاه من الظلمة إلى النور العجيب (١ بط ٢ : ٩) . »

ثالثًا : العهد مع نوح وبناء الفلك

النص من العهد القديم :

١٣ فَقَالَ ٱللهُ لِنُوحٍ: «نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لِأَنَّ ٱلْأَرْضَ ٱمْتَلَأَتْ ظُلْمًا
مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ ٱلْأَرْضِ. ١٤ اِصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ ٱلْفُلْكَ
مَسَاكِنَ. وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِٱلْقَارِ. ١٥ وَهَكَذَا تَصْنَعُهُ. ثَلَاثَ مِئَةِ ذِرَاعٍ
يَكُونُ طُولُ ٱلْفُلْكِ، وَخَمْسِينَ ذِرَاعًا عَرْضُهُ، وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا ٱرْتِفَاعُهُ. ١٦ وَتَصْنَعُ كَوًّا لِلْفُلْكِ،
وَتُكَمِّلُهُ إِلَى حَدِّ ذِرَاعٍ مِنْ فَوْقُ. وَتَضَعُ بَابَ ٱلْفُلْكِ فِي جَانِبِهِ. مَسَاكِنَ سُفْلِيَّةً وَمُتَوَسِّطَةً
وَعُلْوِيَّةً تَجْعَلُهُ. ١٧ فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ ٱلْمَاءِ عَلَى ٱلْأَرْضِ لِأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ
حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ ٱلسَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ يَمُوتُ. ١٨ وَلَكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ
ٱلْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَٱمْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. ١٩ وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ

ٱثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَى ٱلْفُلْكِ لِٱسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى. ٢٠ مِنَ ٱلطُّيُورِ
كَأَجْنَاسِهَا وَمِنَ ٱلْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا وَمِنْ كُلِّ دَبَّابَاتِ ٱلْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. ٱثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ
تُدْخِلُ إِلَيْكَ لِٱسْتِبْقَائِهَا. ٢١ وَأَنْتَ فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَٱجْمَعْهُ عِنْدَكَ.
فَيَكُونَ لَكَ وَلَهَا طَعَامًا. ٢٢ فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ ٱللهُ. هٰكَذَا فَعَلَ

(تكوين ٦ : ١٣ — ٢٢)

النص من العهد الجديد :

١٨ فَإِنَّ ٱلْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ ٱلْخَطَايَا ٱلْبَارُّ مِنْ أَجْلِ
ٱلْأَثَمَةِ لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى ٱللهِ مُمَاتًا فِي ٱلْجَسَدِ وَلٰكِنْ مُحْيًى فِي ٱلرُّوحِ ١٩ ٱلَّذِي فِيهِ أَيْضًا ذَهَبَ
فَكَرَزَ لِلْأَرْوَاحِ ٱلَّتِي فِي ٱلسِّجْنِ ٢٠ إِذْ عَصَتْ قَدِيمًا حِينَ كَانَتْ أَنَاةُ ٱللهِ تَنْتَظِرُ مَرَّةً فِي أَيَّامِ
نُوحٍ إِذْ كَانَ ٱلْفُلْكُ يُبْنَى ٱلَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِٱلْمَاءِ. ٢١ ٱلَّذِي مِثَالُهُ
يُخَلِّصُنَا نَحْنُ ٱلْآنَ أَيِ ٱلْمَعْمُودِيَّةُ. لَا إِزَالَةُ وَسَخِ ٱلْجَسَدِ بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ ٱللهِ
بِقِيَامَةِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ ٢٢ ٱلَّذِي هُوَ فِي يَمِينِ ٱللهِ إِذْ قَدْ مَضَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَمَلَائِكَةٌ
وَسَلَاطِينُ وَقُوَّاتٌ مُخْضَعَةٌ لَهُ

(١ بط ٣ : ١٨ — ٢١)

فى الأصحاحات الأولى من سفر التكوين ، في الأصحاح السادس يرى الله أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، وأن الأرض قد امتلأت ظلمًا إذ أفسد كل بشر طريقه عليها ، فأراد الله أن يهلك الإنسان مع كل الكائنات الأخرى بالطوفان . هنا طلب من نوح أن يصنع فُلكًا ، ويدخل فيه مع عائلته ، ويأخذ معه اثنين ذكرًا وأنثى من الطيور والبهائم

والزواحف لاستبقائها . وفعل نوح حسب كلام الله ، وأقام الله عهده مع نوح ومع نسله من بعده .

في الأصحاح السابع يتم الطوفان ، وفي الأصحاح الثامن يتوقف الطوفان ، ويخرج نوح ومن معه ، ويبني مذبحًا للرب ، ويقدم المحرقات ، ويتنسم الرب رائحة الرضا . ثم يأتي الأصحاح التاسع بمباركة الرب لنوح وبنيه وبتأكيد العهد والميثاق معهم ومع كل المخلوقات ، حتى لا يكون طوفان فيما بعد .

وهنا يأتي العهد الجديد ، ليقتبس الرسول بولس هذه الحادثة ، ويتحدث عن الجانب الثالث والأخير من مفهوم المعمودية في سياق تعليقه على حادثة الفلك فيقول في (١ بط ٣ : ٢١) « الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي المعمودية . لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح » . وفي الترجمة العربية الجديدة « وكان هذا رمزًا للمعمودية التي تنجيكم الآن ، لا بإزالة وسخ الجسد ، بل بعهد صادق النية مع الله بقيامة يسوع المسيح » .

في هذا الجانب يقدم الرسول بطرس فكرتين عن مفهوم المعمودية ، الأولى هو الاختباء والاحتماء في المسيح والنجاة به . فالمجموعة التي قبلت بإيمان صوت الرب ودخلت واختبأت في الفلك ، صد الفلك عنها لطمات الأمواج . احتمت في الفلك واختبأت فيه فنالت الطمأنينة والأمن والنجاة ، وهنا يقول الرسول بطرس هكذا نحن في المعمودية إنها تعني الاختباء والاحتماء في المسيح ، وفي المسيح نحتمي وننجو من الأمواج ولطمات الدينونة ، إذًا لا شيء

من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح ، لأننا نجد الحماية والسلام وغفران الخطايا .

الفكرة الثانية في (عدد ٢١) ، وهو صعب التفسير ، في قول الرسول : « بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع » . السؤال هنا ، هل بمعنى أننا كشعب نسأل الله في المعمودية أعطنا الحياة الجديدة بضمير صالح ؟ أم أن كلمة سؤال تعني « تعهد » بالحياة بضمير صالح ؟ أنا أرى أن المعنى الثاني أقرب إلى النص وإلى القرينة فنحن في المعمودية نتعهد أن نحيا بضمير صالح في جدة الحياة ، بعهد صادق النية مع الله بقيامة يسوع المسيح .

إذًا في هذا الجانب تأتي المعمودية بمعنى الحماية والاختباء والنجاة في المسيح ، وبمعنى التعهد بالسلوك الجديد وحياة القيامة . إنها اختباء من الدينونة الماضية وهي تعهد بالسلوك الجديد في الحاضر والمستقبل .

المعنى الشامل

من هذه الأحداث الكتابية معًا في العهد القديم والعهد الجديد ، يأتي المعنى الكبير للمعمودية . فهي علامة الدخول في العهد مع الله وإننا صرنا ملكًا له متحدين به ، كما رأينا في الختان والعهد مع إبراهيم . وهي الشركة والارتباط والاندماج والوحدة بالرأس وبالجسد ، كما في المرور في البحر ، كما رأينا مع موسى . وهي الاختباء في المسيح والنجاة والخلاص به ، والتعهد بسلوك الضمير الصالح في حياة القيامة ، كما في حالة العهد مع نوح وجماعة الفلك .

وهكذا تشمل المعمودية وتتضمن وتعبر وتشير وتعلن كل أبعاد الحياة في المسيح . فهى كما يذكر John Macquarrie ، تشمل وتتضمن وترتبط بالتوبة ، وغفران الخطايا ، والتبرير ، ومن خلالها يبدأ عمل التقديس ، كما تشمل الحياة التي تتجه لخدمة السيد[١٣] .

ويلخص مايكل جرين Michael Green في كتابه الرائع عن المعمودية هذا المعنى الكبير فيقول :[١٤]

ــ إنها تجسد وتحقق دعوة الله للإنسان للتوبة والإيمان .
ــ وهي تقدم بركات العهد .
ــ وتعطينا أن نشارك في موت وقيامة السيد .
ــ وهي تدخل بنا إلى كنيسة الرب يسوع .
ــ وهي تقدسنا لعمل الملكوت .

وبنفس المعنى ، يقول د . جورج حبيب بباوى[١٥] ، عن المعمودية « إنها تشمل الحديث عن الثالوث والتجسد والصليب والقيامة . ويمكننا أن نلمح بوضوح في عظات القديس كيرلس الأورشليمي للذين سيعمدون أن الدروس الأخيرة قبل المعمودية كانت تشرح قانون الإيمان كله . ولعل هذا هو أحد الأسباب الأساسية التي جعلت القديس أثناسيوس يقول إن الإيمان كله قد خُزن أو جُمع في المعمودية » .

من هنا تكون المعمودية بداءة حياة ، بداءة لحياة كبرى كاملة في شخص الرب يسوع وبين شعبه . إنها بداءة لحياة تتجه بالكامل لخدمة الرب يسوع ، حتى إن كارل بارت Barth يقول « إن كل

الذين تعمدوا كمسيحيين ، تكرسوا وتقدسوا وارتسموا لخدمة الكنيسة » ، للدرجة التي فيها يذهب إلى حد أنه يرى أن أي رسامات أخرى بعد المعمودية تقلل من قدرها .

إن المعمودية ، كما يقول بيركهارت Burkhart هى « نشاط النعمة » والكنيسة عندما تمارس المعمودية تحتفل ، وتدرك ، وتتدرب ، وتعلن[١٦] .

إنها « تحتفل » بترحيب الرب واستقباله ، للذين نالوا خلاصه ، بين شعبه الذي دعي لخدمته . فالمعمودية هنا للمعمدين بداءة لمستقبل جديد .

كما أن الكنيسة مع المعمدين « تدرك » أننا نعيش حياتنا في « زمن الله » الذي أعطاه الله لنا . وفي المعمودية ندرك جميعًا أننا لا نقبل فقط على « مستقبل جديد » ، بل ندرك أيضًا « الماضى الجديد » الذى تفجر في قلوبنا ، والذي أعده ووعدنا به الله .

والكنيسة في المعمودية مع المعمدين ، « تتدرب » على الحياة التي يجب أن تكون ، الحياة الممتلئة بوعود الله وبالذكريات الحية ، والحياة المنفتحة على المستقبل ، وعلى مفاجآت النعمة التي لا نهاية لها . وهي تتدرب على اختبار حاجتها للجديد من الدعم والمشاركة والبناء من الآخرين وللآخرين . وفي المعمودية تتدرب الكنيسة أيضًا على اكتشاف طرق جديدة لتجديد المجتمع الإنساني .

والكنيسة ، فى المعمودية ، لا تحتفل وتدرك وتتدرب فقط ، بل

« تعلن » أيضًا . إنها تعلن وتكرز أن كل حياتنا مغروسة في النعمة ومقامة بمواعيد الله وعليها . إنها إعلان لعمل الرب ولعهده مع شعبه ، وأن الرب يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون .

الفصل الثالث

المعمودية والأساس والإطار

إن كنا قد رأينا من الحوادث الكتابية معًا في العهد القديم والعهد الجديد ، يأتي المعنى الكبير للمعمودية ، بأنها علامة الدخول في العهد مع الله وأننا صرنا ملكًا له متحدين به كما رأينا في الختان والعهد مع إبراهيم . وأنها الشركة والارتباط والاندماج والوحدة بالرأس وبالجسد كما في المرور في البحر كما رأينا مع موسى . وأنها الاختباء في المسيح والنجاة والخلاص به والتعهد بسلوك الضمير الصالح في حياة القيامة كما في حالة العهد مع نوح وجماعة الفلك . إذن ، ما هو الأساس الوحيد للمعمودية ؟

الأساس الوحيد

من هذا المفهوم الشامل يتضح لنا الأساس الوحيد للمعمودية ، فالأساس الوحيد في كل الحوادث والحالات كما يعلنها ويفسرها لنا الوحي المقدس في العهدين هو الإيمان بالمسيح والاتحاد به ، بموته وقيامته . وعلى قدر هذا العمل صار يسوع ضامنًا لعهد أفضل ، « فمن ثم يقدر أن يخلص أيضًا إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم » (عبرانيين ٧ : ٢٢ ــ ٢٥) . ولقد حقق الرب يسوع بعمله على الصليب ، وبقيامته ، العهد الجديد ، وصار هو وسيط العهد الأعظم الذي تثبت على مواعيد أفضل ، « لكي يكون المدعوون إذ صار موت لفداء التعديات التي في العهد الأول ينالون وعد الميراث الأبدي » (عبرانيين ٨ : ٦ ، ٩ : ١٥) . على أساس هذا العمل العظيم وحده ، تكون المعمودية بهذا المفهوم الفدائي التاريخي « Historical Redemptive event » فترتبط بعمل المسيح الفدائي الذي قام به . وهذا ما عبر عنه السيد

المسيح نفسه عندما أشار إلى موته الكفاري بقوله « ولي صبغة أصطبغ بها . وكيف انحصر حتى تكمل » (لوقا ١٢ : ٥٠) . وكلمة صبغة هي نفس الكلمة التي تترجم معمودية [١٧] .

هذا التفسير الفدائي والتاريخي للمعمودية لا يتفق مع الاتجاهات التفسيرية الأخرى التي يحاول البعض الصاقها بالمعمودية . فإذا تركنا جانبًا رأي بولتمان في كتابه « لاهوت العهد الجديد » (صفحات ١٤٤ ــ ١٤٦) ، والذي نادى فيه بأن الرسول بولس في حديثه عن الموت والقيامة مع المسيح في المعمودية ، كان يأخذ عن الديانات السرية طقوسها التي فيها يتحد الإنسان بإلهه في موته وقيامته .

إذا تركنا هذا الرأي الذي انتهى وزال تدريجيًا ، لا نجد أيضًا أي أساس ينهض عليه الاتجاه الرمزي والحرفي الذي نادى به بعض العلماء أمثال تشارلس دود Dodd وبول ريدرباس Paul Ridderbas في قولهما إن الموت والقيامة يحدثان رمزيًا في المعمودية ، فكما أن المسيح مات هكذا يموت المؤمن ويتحد معه عندما يغطس في الماء . فلحظة دخول المعمد في الماء يكون قد مات ودفن ، ولحظة خروجه من الماء يكون قد قام مع المسيح . فالدفن والقيامة في المعمودية رمز لموت المعمد وقيامته مع المسيح . ويرتبط بهذا التفسير تفسير آخر أكثر حرفية يقول إن المؤمن يموت موتًا روحيًا ويدفن في المعمودية ، أي أن المعمودية هي القبر الروحي الذي يدفن فيه المؤمن ، لكي يقوم أيضًا قيامة روحية عندما يخرج من المعمودية .

وبالنسبة للتفسير الرمزي نقول إن الماء في الكتاب المقدس لا يعني

الموت والدفن بل يرمز إلى التطهير ، فلا يمكن أن نقول إن دخول المؤمن للماء معناه أنه مات . كما أن حرف الجر الذي يأتي في وقت القيامة لا يمكن أن يترجم « نقوم من » ولكن نقوم في المعمودية (كولوسي ٢ : ١٢) .

أما بالنسبة للتفسير الحرفي فالرسول لا يتكلم عن موت المؤمن شخصيًا ، وقيامة المؤمن شخصيًا في المعمودية ، إن الأهم والأوضح والأساس — كما يشرح ذلك الدكتور القس فهيم عزيز — هو موت المسيح نفسه وقيامته . فلا يوجد موت للمؤمن مستقلاً عن المسيح ، ولا قيامته مستقلة عن المسيح روحية أم غير روحية . ولم يقل هنا أبدًا إن المعمودية هي قبر فيه يدفن المؤمن وفيها يقوم . بل هي اشتراك في موت المسيح وفي قيامته . فالأساس الأوحد هو موت المسيح ، والمؤمنون المعمدون يشتركون في هذا الموت وهذه القيامة وبذلك يقال عنهم إنهم ماتوا مع المسيح وقاموا معه .

هذه الحقيقة واضحة في المقابلة الشهيرة بين المسيح وآدم في (رومية ٥ : ١٥ — ١٩) إذ يقول الرسول « ولكن ليس كالخطية هكذا أيضًا الهبة . لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون فبالأولى كثيرًا نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين . وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية لأن الحكم من واحد للدينونة . وأما الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير . لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيرًا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحيوة بالواحد يسوع المسيح . فإذًا كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع

الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحيوة لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة هكذا أيضًا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارًا . هذا يعني أن آدم أخطأ فأخطأ الجميع فيه أي حسبوا خطاة ، ومات فمات فيه الجميع . هكذا عندما يتحد المؤمنون بالمسيح ، يشتركون في موته ويشتركون في قيامته أيضًا . ماتوا معه في موته ، ودفنوا معه في دفنه ، وقاموا معه بقيامته وفيها ، وكل ذلك في المعمودية .

الإطار الجماعي

من المفهوم الكتابي الشامل للمعمودية الذي درسناه من خلال الحوادث الكتابية ، وطبقًا لأساس المعمودية الوحيد الذي هو عمل الرب يسوع ، نرى بكل الوضوح أن إطار المعمودية هو إطار جماعي . فلقد كان العهد من الله وإبراهيم كممثل للشعب ، والمرور فى البحر الأحمر والاعتماد لموسى كان لكل الشعب الكبير والصغير الرجل والمرأة ، والعهد مع نوح كان معه ومع عائلته ومع نسله من بعده .

وإذا ربطنا بين مفهوم المعمودية وبين أساسها الوحيد ، لرأينا أن المعمودية ترتبط بالحياة الجديدة التي أعلنها وحققها المخلص ، كما ترتبط بالانضمام إلى جسده أي إلى الكنيسة . ويؤكد الرسول بولس في كل الأماكن هذه الحقيقة ، ففي (غلاطية ٣ : ٢٧) « لأن كلكم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح » إن الرسول يريد أن يقول إن كنيسة غلاطية مع كل المؤمنين قد انضموا إلى المسيح وصاروا واحدًا فيه ، وبعد عن هذه الوحدة بالمسيح في قوله « لبستم المسيح »

وذلك لأنهم اعتمدوا للمسيح .

ويفسر الرسول قوله في مكان آخر في (كولوسي ٣ : ٩ — ١١) « لا تكذبوا بعضكم على بعض إذ قد خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه . حيث ليس يوناني ويهودي ختان وغرلة بربري سكيثي عبد حر بل المسيح الكل وفي الكل » .

وهنا يتضح أن الإنسان العتيق الذي يخلعه الإنسان ، والجديد الذي يلبسه ، لا يشيران إلى خبرة فردية بحتة تتجدد فيها طبيعة المؤمن ، ولكنهما يشيران إلى انتقال المؤمن من الإنسان العتيق الذي هو آدم ومن هم له ، إلى المسيح ومن هم له . الأول هو الخليقة القديمة والثاني هو الخليقة الجديدة ، فالمسيح الذي هو النسل الواحد من إبراهيم وهو الإنسان الثاني ، يضم في نفسه الجماعة الجديدة . ولهذا السبب يمكننا أن نقول إن الإنسان يعمد إلى جسد واحد الذي هو المسيح[١٨] . وهذا ما يوضحه الرسول بقوله « وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد وفي نسلك الذي هو المسيح » (غلاطية ٣ : ١٦) .

في موقع آخر يقدم الرسول نفس الحقيقة في (رومية ٦ : ٣ — ٥) فيقول « أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضًا في جدة الحيوة . لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضًا بقيامته » . في هذه

الأعداد يبين الرسول كيف تؤدى المعمودية إلى الارتباط بالمسيح وبجسده الذي هو كنيسته . وفي هذا الفصل توجد عبارة هامة في العدد الخامس ، لا تظهر بمعناها الحقيقي في الترجمة العربية وهي « إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته ... » فالكلمة « متحدين » التي جاءت في الترجمة الانجليزية (R. S. V.) « We have been united » جاءت في ترجمة (King James) « We have been planted together » أي « إن كنا قد زُرعنا معًا وننمو معًا في شبه موته » . وهذا يعني أن المؤمنين يزرعون معًا في موت المسيح وبالتالي في قيامته ، بالمعمودية ، فينتقلون من رباطهم مع آدم إلى رباطهم الجديد في المسيح ليصيروا إنسانًا جديدًا مصنوعًا حسب صورة خالقه .

من كل ما سبق نرى أنه إذا كان أو ما دام الأساس الوحيد للمعمودية هو عمل الرب يسوع ، فالإطار الوحيد للمعمودية هو جسد الرب يسوع أي الكنيسة .



...ation of the Alexandria Library , GOAL

الفصل الرابع

المعمودية والحياة الجديدة

إن كنا قد أدركنا المفهوم الكتابي الحقيقي للمعمودية ، وهو المفهوم الفدائيُ التاريخي الذي يشير إلى عمل الرب يسوع على الصليب من أجلنا ، فيجدر بنا أن نسأل :

— ما هي العلاقة بين المعمودية في حد ذاتها وبين نوال الحياة الجديدة أو الميلاد الثانى ؟
— وهل هناك آراء مختلفة بين الكنائس بشأن هذا الموضوع ؟
— وكيف نصل إلى تصور كتابي واضح ؟

لقد رأينا بوضوح كامل أن الأساس الوحيد للمعمودية هو عمل الرب يسوع ، وأنها علامة وإشارة إلى مشاركة المؤمن موت المسيح وقيامته . فهى لا تؤخذ بالمفهوم الرمزي الحرفي الذي ينادي — كما ذكرنا — بأن المؤمن شخصيًا يموت لحظة دخوله إلى الماء ، ويقوم لحظة خروجه منها ، بل إن الموت الحقيقي هو موت الرب يسوع ، كما أن القيامة الحقيقية هي قيامة الرب يسوع . والمعمودية تشير إلى أن المؤمن اشترك في هذا العمل وقبله ، ونال الحياة الجديدة بالروح القدس(١٩) .

إن المعمودية « تشير » إلى كل ذلك ،وهى « علامة » على كل ذلك ، لكنها — بالطبع وبكل يقين — ليست « البديل » عن عمل الرب يسوع ، وعن قبوله بالإيمان بالروح القدس ، إنها ضرورية كل الضرورة وهامة غاية الأهمية ، لأنها تشير « وتعبر » عن هذا العمل الفدائيُ العظيم .

ومن هذا المنطلق يعلق بركوف Berkhouf على المعمودية فيقول :

« إنها وسيلة من وسائل النعمة كالعشاء الرباني » لتقوية النعمة الداخلية التي يعمل بها الروح القدس في القلب . ويقول هنري ثيسن : « إن التوبة والإيمان والمعمودية وثيقة الصلة ببعضها البعض برغم أن المعمودية ـــ كما هو واضح ـــ لا تسهم في الخلاص بل تتبعه مباشرة ، فقد اعتمد كرنيليوس بعد أن أخذ الروح القدس (أعمال ١٠ : ٤٤ ـــ ٤٨) « فبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حل الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة فاندهش المؤمنون الذين من أهل الختان كل من جاء مع بطرس لأن موهبة الروح القدس قد انسكبت على الأمم أيضًا . لأنهم كانوا يسمعونهم يتكلمون بألسنة ويعظمون الله . حينئذ أجاب بطرس أترى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما نحن أيضًا . وأمر أن يعتمدوا باسم الرب حينئذ سألوه أن يمكث أيامًا » . وربما كان يقصد بروس Bruce نفس المعنى عندما قال : « إن فكرة وجود مسيحي غير معمد ليست واردة في العهد الجديد » .

وفي نفس الاتجاه يقول سوس Saucy : « إننا ننال بركات الإنجيل بالإيمان ، إلا أنه عندما نعبر عن الإيمان بطريقة موضوعية ـــ من خلال المعمودية ، يستخدم الله هذا الفعل لتأكيد حقائق الخلاص... »[٢٠]

إن التجديد ، أو الميلاد الثاني ، من عمل الروح القدس في الداخل بالإيمان ، والرسول بولس يكرر « أنتم إذ كنتم أمواتًا بالذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا العالم حسب رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية الذين نحن أيضًا جميعًا تصرفنا قبلاً بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار

وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا الله الذي هو غني في الرحمة من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح . بالنعمة أنتم مخلصون . وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع ليظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا في المسيح يسوع لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد » (أفسس ٢ : ١ — ٩) .

كما أن التوبة والإيمان يسبقان المعمودية . يقول الرسول بطرس لجمهور الشعب في يوم الخمسين : « فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس » (أعمال ٢ : ٣٨) . وقال فيلبس للوزير الحبشي الذي أراد أن يعتمد : « أترى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما نحن أيضًا » (أعمال ١٠ : ٤٧) . وفى « مرقس ١٦ : ١٦) قال يسوع : « من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن » .

ولقد تأيد هذا عمليًا في الكتاب المقدس ، فالذين اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر في العهد القديم « بأكثرهم لم يسر الله لأنهم طرحوا في القفر » (١ كورنثوس ١٠ : ٥) ، ويهوذا الذى أخذ اللقمة في العشاء الأخير مع السيد نفسه خان سيده ، واللص التائب على الصليب ، نال الخلاص ودخل الفردوس ، رغم أنه لم يعتمد ، وسيمون الساحر مع أنه اعتمد ، لكنه أظهر ما يدل أنه لم يكن مؤمنًا حقيقيًا .

ولقد نادى كارل بارث Barth مثل جيرهارد كيتل Kittel بالتمييز بين « معمودية الماء وعمل الروح » فيها أي أن المعمودية بالماء « علامة » و « إشارة » و « تعبير » عن عمل الروح الذي تم بالإيمان في القلب . وبذلك اتفق بارت مع بيذلي موري Beasley Murray برغم اختلافهما في بعض التفاصيل ، مثل هل تعاد المعمودية للشخص الذي تعمد طفلاً بعد أن ينال الإيمان في الكبر كما يقول موري ، أو أنه لا يتعمد ثانية كما يقول بارت — أقول إنهما يتفقان في النهاية على حتمية وجود الإيمان كأساس لغفران الخطايا والحياة الجديدة كما في (مرقس ٢ : ٥) « فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج يا بني مغفورة لك خطاياك »[٢١] .

وفي هذا المجال عبَّر مايكل جرين[٢٢] عن هذه القضية بقوله ، إن كنا قد أدركنا معنى المعمودية ، فما الذي تفعله المعمودية . فهناك فرق بين السؤال ماذا تعني المعمودية ؟ ، وبين السؤال ماذا تفعل ؟ . وهذا هو سر الاختلاف بين نظرة الكنائس التقليدية والبروتستانتية ، وسر الخلط عند الجميع . ونحن نحاول أن نفهم المعنى لتتضح أبعاد الفعل .

رأي الكنائس الارثوذكسية والكاثوليكية

تنادى هذه الكنائس بأننا « ننال » الحياة الجديدة في المعمودية ، بمعنى أن المعمودية « وسيلة » التبرير والتجديد[٢٣] ، وأننا نحصل على التبرير بالمعمودية وفيها[٢٤] . وربما تقصد هذه الكنائس أن تعمق انتماء وارتباط الشعب بالكنيسة ، عن طريق المعمودية خاصة والأسرار الكنسية عامة ، وأن تثبِّت وتقوى وتدعم السلطة الكنسية على

الشعب في نفس الوقت .

وتعميق الانتماء والولاء للكنيسة ، أمر في غاية الأهمية نحتاج إليه جميعًا وننادى به ، في وقت تضاءل فيه الولاء ، وتراجع الالتزام والانتماء كثيرًا . كما أن تدعيم السلطة الكنسية بمفهومه الصحيح والإيجابي ، أمر مطلوب ومرغوب ، أيا كان النظام الذي ننتهجه سبيلاً لكنائسنا . وعندما أقول ذلك لا أدعو إلى سلطة الكنيسة عن طريق التسلسل في الرتب الكهنوتية ، كما هو الحال في النظام الأسقفي كما يظن البعض ، أو كما يحلو للبعض أن يسيء الفهم عن قصد أو غير قصد ، حتى يبقى الحال على ما هو عليه من تفكك وفوضى . ولكنني أدعو إلى تدعيم السُلطة الكنسية من خلال « تصحيح المسار » في نظامنا الذي ارتضيناه جميعًا ، إلى إحياء « النظام » في إطارنا الإداري ، حتى تنتظم حركة الكنيسة في إيقاع منسجم متفاعل يدفع إلى التقدم والوحدة والامتداد وفاعلية الرسالة .

كل ذلك نافع ورائع ، ندعو إليه ونعمل على تحقيقه ، ولكن لا ينبغي الخلط بين الدعوة إلى الانتماء والسلطة الكنسية وبين التبرير والتجديد . وإلا كيف نصالح بين رأي الكنائس التقليدية بأن المعمودية وسيلة الحياة الجديدة ، وبين فكر الرسول بولس خاصة والعهد الجديد عامة الذي ينادي بالتبرير بالإيمان بعمل المسيح وحده ؟! . يقول الرسول « وأما الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس مشهودًا له من الناموس والأنبياء . بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله . متبررين مجانًا بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح الذي قدمه

الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون بارًا ويبرر من هو من الإيمان بيسوع » (رومية ٣ : ٢١ — ٢٦) .

ثم يقدم الرسول نموذجًا عمليًا من حياة أبينا إبراهيم فيقول « فماذا نقول إن أبانا إبراهيم قد وجد حسب الجسد لأنه إن كان إبراهيم قد تبرر بالأعمال فله فخر ولكن ليس لدى الله لأنه ماذا يقول الكتاب فآمن إبراهيم بالله فحسب له برًا أما الذي يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة بل على سبيل دين وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر فإيمانه يحسب له برًا كما يقول داود أيضًا في تطويب الإنسان الذي يحسب له الله برًا بدون أعمال طوبى للذين غفرت آثامهم وسترت خطاياهم طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية أفهذا التطويب هو على الختان فقط أم على الغرلة أيضًا لأننا نقول إنه حُسب لإبراهيم الإيمان برًا » (رومية ٤ : ١ — ٩) .

والتبرير بالإيمان لم يقدمه الرسول لجماعة دون أخرى ، أو عصر دون آخر ، بل هو القلب النابض في اختبارنا المسيحي لكل الجماعات والعصور ، ولذلك يقول الرسول « ولكن لم يكتب من أجله وحده أنه حسب له بل من أجلنا نحن أيضًا الذين سيحسب لنا الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات الذي أسلم من أجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا » (رومية ٤ : ٢٣ — ٢٥) . نعم « لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن لليهودي أولاً ثم لليوناني لأن فيه معلن بر الله بإيمان لإيمان كما هو مكتوب أما البار فبالإيمان يحيا » (رومية ١ : ١٦ و ١٧) .

كما أن الكنائس التقليدية تفترض أن الولادة الجديدة يمكن أن تحدث للإنسان ، بدون ظهور أي علامة على تغيير حياته . ونحن نؤكد أنه من الصعب أيضًا أن نحاول المصالحة بين هذا الرأي وبين تعليم العهد الجديد . فمثلاً ، هناك خمس علامات أو سمات للتجديد نجدها واضحة في رسالة يوحنا الرسول الأولى[٢٥] وهي :

١ ـــ الشخص المجدد لا يتعود على ارتكاب الخطية « كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولود من الله » (١ يو ٣ : ٩) .

٢ ـــ إنه يؤمن أن يسوع هو المسيح ، أي أنه المخلص المعين والممسوح من الله « كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله . وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضًا » (١ يو ٥ : ١) .

٣ ـــ وهو يعيش حياة مقدسة « إن علمتم أنه بار هو فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » (١ يو ٢ : ٢٩) .

٤ ـــ وهو يحب شركة اخوته من المؤمنين « نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الأخوة . من لا يحب أخاه يبق في الموت » (١ يو ٣ : ١٤) .

٥ ـــ وهو يريد أن يرضي سيده بأن يحاول أن يعيش حياة الغلبة والانتصار « لأن كل من ولد من الله يغلب العالم . وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا . من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله » (١ يو ٥ : ٤ و ٥) .

هذه بعض الملامح التي يوردها يوحنا ليصف بها الشخص المولود

من الله . ومن الصعب جدًا أن نقول إنها تصف كل العدد الكبير من المعمدين . إن المعمودية هي « علامة » الحياة الجديدة ، لكنها لا تؤكد دائمًا نوال المعمد للحياة الجديدة . لقد تعمد سيمون الساحر ، لكنه كان ما زال يعيش فى « شره » وفي « مرارة المر ورباط الظلم » (أعمال : ٨ : ١٣ و ٢٠ — ٢٣) . لا ، إننا من واقع فهمنا لكلمة الرب ، نرى أن المعمودية ، لا تفعل دائمًا ما تشير إليه وما تعنيه .

رأي الكنائس البروتستانتية

على الجانب الآخر ، تعامل بعض الكنائس البروتستانتية الانجيلية المعمودية بسطحية شديدة ، وتنظر إليها على أنها مجرد « رمز » ، وانها لا « تفعل » شيئًا على الاطلاق . وهنا نصطدم أيضًا بفكر العهد الجديد في بعض المواضع التي تكلمنا عنها ، أو التي سنتكلم عنها في الصفحات القادمة ، والتي تشير إلى الارتباط بين المعمودية والخلاص ، وإلى الموت والقيامة مع المسيح ، وإلى الولادة الجديدة ، وإلى لبس المسيح « الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي المعمودية لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح » (١ بط ٣ : ٢١) « أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته . فدفنا معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضًا في جدة الحياة » (رومية ٦ : ٣ و ٤) ، « أجاب يسوع الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو ٣ : ٥) ، « لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح »

(غلاطية ٣ : ٢٧) .

صحيح أن هذا الرأي يجد له سندًا من وجود المعمدين غير المجددين ، وحتى عند بعض النماذج الكتابية (١ كورنثوس ١٠ : ١ ــ ٦) ، ولكن كيف نصل جميعًا إلى رأي نستريح إليه ، ويقدم لنا الرأي الكتابي واللاهوتي في شموله وغناه ، لنصحح مفاهيمنا على ضوئه ؟ ..

كيف ؟

قدَّم مايكل جرين محاولة للوصول إلى إجابة لهذا السؤال ، عندما شبه المعمودية بحفل الزواج ، قال : بعد أن يستمع الراعي إلى إجابات الاثنين على عهود الزواج ، يعلن أنهما زوج وزوجة . ولكن لكي يصبح هذا الزواج واقعًا حقيقيًا ، لا بد من التسجيل الرسمي ومن اتمام المعاشرة أو العلاقة الزوجية بين الزوجين . وإذا لم تتحقق هذه الشروط جميعًا ، لا يكون الزواج قد تم كواقع حقيقي ، برغم إجراء مراسيم الزواج .

والمعنى هنا في هذا التشبيه أن المعمودية « إعلان » و « علامة » على العهد الجديد الذي يربطنا بالرب وبشعبه ، وبالتالي « إعلان » على الحياة الجديدة التي لنا في هذا العهد . لكنها إعلان وعلامة وإشارة وتعبير عن شيء هام قد سبق وتم وهو الإيمان بعمل الرب يسوع وقبوله في القلب ونواله الحياة الجديدة . إن الإيمان سابق على المعمودية سواء في الكبار في اختبارهم الشخصي ، أو في الصغار في إيمان والديهم والكنيسة حتى يتمكنوا في كبرهم من الإعلان عنه والنمو فيه . فالمعمودية ، كالعشاء الرباني ، ليست « سحرًا » تمنح الخلاص

والحياة الجديدة في حد ذاتها ، فهي بدون الإيمان القلبي الصحيح ، والتوبة الصادقة المخلصة ، وأساس دم المسيح الكفاري وحده ، لا تفعل شيئًا على الإطلاق . بهذا المفهوم الواضح نقول إنها ترتبط وتعبر وتعلن عن الخلاص والحياة الجديدة بعمل الروح القدس ، وبهذا المفهوم نضع فعل المعمودية في إطار معناها الشامل وليس العكس .

ولقد قدم كلفن نفس المعنى عندما تعرض للحديث عن المعمودية ، إذ وجه أفكارنا ورفع أبصارنا إلى الله وعمله الخفي والفعال فيها ، بدلاً من التركيز على الظاهر والمنظور منها . إذ قال إن المعمودية علامة وبرهان على تطهيرنا ، لا لأن الماء في ذاته يطهر ، ولكن لأنه مع ممارسة الفريضة ننال معرفة هذه الهبات والتأكد منها . إنها تعلن موتنا في المسيح وحياتنا الجديدة فيه . إن الصراع لإخضاع ذواتنا لله يبدأ بمعموديتنا ويستمر يومًا بعد يوم ، ولن ينتهي هذا الصراع إلى أن ننتقل من هذه الحياة لنكون مع الرب . إنها تُتحِدُنا مع المسيح في موته وقيامته حتى ننال كل بركات هذه الحياة ، ولكن فوق كل شيء يلزمنا أن نتقبل المعمودية من يد الرب نفسه الذي فرضها لتقوية إيماننا وتنميته وتثبيته .

يجب علينا أن نُيقن تمامًا أنه هو الذي يتكلم إلينا عن طريق هذه العلامة ، وأنه هو الذي يطهرنا من خطايانا ويغسلنا ويمحو كل ذكر لهذه الخطايا ، وأنه هو الذي يجعلنا شركاء في موته وهو الذي يجرد الشيطان من سطوته ، ويضعف من قوة شهواتنا ، بل في الواقع إنه هو الذي يتحد بنا حتى إذا ما لبسنا المسيح ، يعترف بنا أننا أولاد الله ... لقد سر الله أن يعلن لنا هذه الأمور في عمل مادي مثل

المعمودية ، لا لأن الفريضة في ذاتها تحتوي على هذه النعم فتخلعها علينا بقوة فاعليتها ، ولكن لأن الرب بهذه العلامة يؤكد مشيئته من نحونا ، أي أنه قد سر بأن يغدق علينا كل هذه الأشياء ، وأنه لا يمتع أنظارنا بمجرد مظاهر بل يقودنا إلى الواقع الحقيقي ويتمم فينا بقوة كل ما ترمز إليه .

مواضع كتابية

وهناك بعض المواضع الكتابية التي تفسر ــ في ظاهرها ــ هذا الخلط الذي يقع فيه الكثيرون ، وسوف نحاول أن نقف أمامها في نور الكلمة الكامل ، لنرى أنها ــ على العكس ــ تؤيد الاتجاه الذي نسير فيه .

(يوحنا ٣ : ٥) قول المسيح لنيقوديموس ــ والذي تعرضنا له في سياق الحديث عن صلة المعمودية بالروح القدس « أجاب يسوع الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » . وكلمة « الماء » هنا التي يعتمد عليها أصحاب عقيدة التجديد ، لا تشير إلى المعمودية ، بل تشير إلى التطهير ، حسب الفكر والتعليم اليهودي الذي يدين به نيقوديموس وقد يكون إشارة أيضًا إلى كلمة الله التي تجري كأنهار ماء حية مطهرة للمؤمن[٢٦] .

وفي نفس هذا المعنى يأتي قول الرسول في (أفسس ٥ : ٢٦) عن علاقة المسيح بالكنيسة « لكي يقدسها مطهرًا إياها بغسل الماء بالكلمة » . وهنا يضيف الرسول عنصرًا جديدًا هو في الحقيقة

العنصر الفعال في كل شيء وهو السيد نفسه . فهو الذي أحب الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها ، وهو الذي يطهرها . وغسل الماء في المعمودية يقابل الاستحمام بالماء الذي تجريه العروس قبل زفافها إلى عريسها ، فهو يشير إلى أنها قد أصبحت نقية وطاهرة . وقبول الكنيسة للمعمودية إشارة ــ بنفس المعنى ــ إلى أنها قد تطهرت ، والذي طهرها وغسلها هو المسيح نفسه الذى أحبها وأسلم نفسه من أجلها . أما قول الرسول « بالكلمة » فحرف الجر هنا في اليونانية يعبر عن « المكانية » ، فيكون المعنى « في الكلمة » ، وبأكثر دقَّة « بواسطة الكلمة » .

ولكن ما المقصود « بالكلمة » ؟ هل هي « كلمة الكهنوت » كما ترى الكنائس التقليدية ، أو صلاة الكاهن على ماء المعمودية ليصبح للماء التأثير الروحي الفائق للطبيعة ؟ . أم أنها ــ كما يقول وستكوت في تفسيره لرسالة أفسس ــ « كلمة الانجيل » أو الكلمة التي يقولها الله للذين يؤمنون ويعمدون ويقبلهم في جسد ابنه ؟ . على أن الدكتور القس فهيم عزيز يرى أن التفسير المرجح هو أن هذه الكلمة هي ما يعبر عنه الرسول في (رومية ١٠ : ٨ ــ ١٠) « لكن ماذا يقول . الكلمة قريبة منك في فمك وفي قلبك أي كلمة الإيمان التي نكرز بها لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت . لأن القلب يؤمن به للبر والفم يعترف به للخلاص » . انها « كلمة الإيمان » . وهو بالطبع لا يقصد مجرد الاعتراف الظاهري باقرارات الإيمان ، بل إنه ينسب العمل الفدائي العظيم الذي تشير إليه المعمودية وهو الغسل ، إلى المسيح نفسه وإلى كلمة الإيمان التي يعترف بها المؤمن[٢٧] .

أما قول الرسول بولس في (١ كورنثوس ٦ : ١١) « وهكذا كان أناس منكم لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا » . فيعتقد معظم العلماء فى العصر الحديث أنه يشير إلى المعمودية ويربطون بينه وبين ما جاء في حديث الرسول في أماكن أخرى مثل (رومية ٦ : ١ — ٦) ولقد عبر كلفن في وضوح عن هذا الرأي ، على أساس أن هذا الغسل لا يتم فعلاً وأساسًا بواسطة المعمودية ، بل إنها ترمز وتشير إليه . فارتباط المعمودية ليس هو ارتباط الأصل ، ولكنه ارتباط العلامة والتعبير عن أمر أصيل قد حدث وقام به الروح القدس نفسه .

(Institute of Christian Religion Vol . 2 P . 584) .

على أننا لا يمكن أن نترك مجال الحديث عن المعمودية والحياة الجديدة أو الميلاد الثاني ، بدون أن نشير إلى عبارة هامة وردت في حديث الرسول بولس إلى تيطس ، في سياق حديثه عن الأساس اللاهوتي والروحي للأخلاق المسيحية في المجتمع ، فقال في (تيطس ٣ : ٥) « بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس » .

والعبارة الهامة هنا هي « الميلاد الثاني » وهي عبارة لم ترد إلا هنا وفي (متى ١٩ : ٢٨) عندما قال السيد المسيح لتلاميذه « فقال لهم يسوع الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم على اثنى عشر كرسيًا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر » .

ويقول Jeremias أحد علماء العهد الجديد ، إن هذه العبارة مع

عبارات أخرى في هذا الأصحاح ربما تكون مقتبسة من ترنيمة مسيحية عن المعمودية ، إلا أن كلمة « التجديد » في (متى ١٩ : ٢٨) وهى نفس عبارة « الميلاد الثاني » في تيطس regeneration ، كلمة « اسخاتولوجية » أي « أخروية »[٢٨] أي أنها كلمة تعبر لا عن اختبار فرد واحد فقط بل تعبر عن العهد الجديد كله . فالسيد يريد أن يقول لتلاميذه « أنتم الذين تبعتموني في هذا العهد الجديد » ، الذي تدخل فيه الله بقوة في المسيح يسوع ليصنع فداء لشعبه ويقيم ملكوته . أما « الغسيل » فيشير إلى المعمودية ، لكن حرف الجر الذي يحكم هذه الكلمة فهو الباء « بغسل » ، وهو في اليونانية (dia) الذي إذ جاء مع المضاف فهو يعني « خلال » (Through) إذن يكون المعنى أن الله هو الذي خلصنا .

والعنصر الفعال في الخلاص يكمن في باقي العبارة في تيطس « تجديد الروح القدس » والكلمة « تجديد » هنا renewing تختلف عن « الميلاد الثاني » . وبعض العلماء يرون أن العبارتين تصفان أشكالاً مختلفة لعملية واحدة ، والبعض الآخر يرى أنهما عمليتان منفصلتان . لكننا نتفق مع دونالد جوثرى[٢٩] Donald Guthrie في رأيه في هذا النص (من خلال تفسيره للرسائل الرعوية ضمن مجموعة (Tyndale) أن الميلاد الثاني يسبق التجديد .

والخلاصة التي تهمنا في هذا المجال ، أن الله هو الذي خلصنا ، وأنه بروحه الأقدس أكد لنا خلاصه عندما اعترفنا بالرب يسوع المسيح ، كما في (رومية ١٠ : ٩) ، في وقت المعمودية التي هي فرصة العهد الجديد . إن الأمر المحوري هنا أن الفاعل في كل ذلك ، هو الله .

إن الحقيقة الكبرى التي نريد أن نؤكد عليها ، هي أن الفرائض المقدسة في ذاتها لا تخلص ، إن لم تشر إلى عمل داخلي قد تم فعلاً . وهذا ما يؤكده الوحي في كل مكان ، وربما نذكر عبارة الرسول بطرس في (١ بط ٣ : ٢١) عن المعمودية « لا إزالة وسخ الجسد » ، والكلمة « جسد » هنا تعني « جسد الخطية » أي أن المعمودية في حد ذاتها ، لا تزيل الخطية لأن الأساس الأوحد لإزالة وغفران الخطية هو دم المسيح ، بل كما ذكرنا ، هي « إشارة » و « تعبير » و « تعهد » على الاشتراك في عمل المسيح والاشتراك في فوائد هذا العمل ، والسلوك في الإنسان الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه . وهذا ما أعلنه الرسول بولس في حديثه عن « الختان » الذي يقابل المعمودية في (رومية ٢ : ٢٥ ــ ٢٩) إذ يقول « فإن الختان ينفع إن عملت بالناموس ولكن إن كنت متعديًا الناموس فقد صار ختانك غرلة إذًا إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس أفما تحسب غرلته ختانًا . وتكون الغرلة التي من الطبيعة وهي تكمل الناموس تدينك أنت الذي في الكتاب والختان تتعدى الناموس لأن اليهودي في الظاهر ليس هو يهوديًا ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختانًا بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذي مدحه ليس من الناس بل من الله » .

الفصل الخامس

معمودية البالغين ومعمودية الأطفال

أسئلة هامة

ما دمنا قد وقفنا أمام المفهوم الكتابي واللاهوتي للمعمودية ، ورأينا أساسها الوحيد والأكيد فى عمل الرب يسوع ، وأدركنا ضرورتها وأهميتها ، فلا بد أن نجيب على بعض التساؤلات التي تأتينا بين الحين والآخر ، مثل :

١ ـــ ما هى ضرورة المعمودية ؟

٢ ـــ وهل نكتفي بمعمودية البالغين ؟ أم نعمد الأطفال أيضًا ؟

٣ ـــ ولماذا نعمد الأطفال ؟

٤ ـــ وما دمنا نرى في مفهوم المعمودية هذا الارتباط الوثيق بينها وبين التوبة والإيمان ، فلماذا لا نكتفي بتعميد البالغين الذين يتمكنون من الإدراك والاختبار ؟ ألم يقل السيد بنفسه « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » (مرقس ١٦ :١٦) ؟ فلماذا الإصرار على معمودية الأطفال ؟

٥ ـــ ولماذا تعمد الغالبية من الكنائس المسيحية الأطفال ؟ مثل الأرثوذكس ، والكاثوليك والمشيخيون ، ونهضة القداسة ، والأسقفيون ، والإخوة Brethren ، واللوثريون ، والكلفينيون ؟ بينما لا تمارس بعض الكنائس الأخرى معمودية الأطفال مثل المعمدانيون ، والإخوة المرحبون ، Open Brethren بعض الكنائس الرسولية والخمسينية والمستقلة ، وتكتفي بمعمودية الكبار ؟ وأين الصواب ؟

٦ ـــ وإن كانت المعمودية بهذا المفهوم ، فما هو موقف الطفل الذي

يكبر ويرفض الإيمان ؟

٧ ــ ولماذا الرفض لمعمودية الأطفال من بعض الكنائس ؟

٨ ــ وما هي شهادة التاريخ الكنسي لمعمودية الأطفال ؟

هل المعمودية ضرورية ؟

يرفض البعض أمثال الكويكرز وجيش الخلاص ، المعمودية والعشاء الرباني . وربما هذه الأيام يوجد من يقول لنا ، مرة أخرى ، لماذا المعمودية ؟ إنني أعرف الرب فلماذا أحتاج إلى أي علامة خارجية مثل المعمودية ؟ .

والإجابة على السؤال واضحة تمامًا :

١ ــ فالمعمودية ليست مجرد علامة خارجية ، بل إن أساسها ــ كما ذكرنا في الفصل الثالث ــ هو عمل الرب يسوع من موت وقيامة ، وبالتالي فهي في مدلولها الفدائي التاريخي تعلن وتعبر عن هذا العمل العظيم في حياتنا . وعدم إدراك أهمية المعمودية يعني عدم إدراك الأساس الذي تقوم عليه ، والمدلول الذي يشير إليه .

٢ ــ كما أننا نحتاج إلى المعمودية لنطيع أمر السيد نفسه ، عندما قال لتلاميذه : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به » (متى ٢٨ : ١٩) . وفي نهاية إنجيل مرقس كرر يسوع أمره قائلاً « وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » (مرقس ١٦ : ١٥) . وإن كنا نعلن أننا نتبع يسوع سيدنا ، إذن نحتاج أن نطيع أمره .

٣ ــ والمعمودية علامة الكنيسة المسيحية في كل عصورها ، كما سنرى بعد ذلك عند التعرض لتاريخ الكنيسة ، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة جدًا . ففي كل العهد الجديد كان من الطبيعي

أن قبول المسيح يقود إلى مجتمع وجماعة المسيح ، إلى الكنيسة . والمعمودية كانت ولا تزال الطريق إلى كنيسة المسيح ، كما رأينا في الفصول السابقة . وذلك لأن الكنيسة في كل العصور فهمت وأدركت معنى المعمودية ومدلولها الكبير والهام ، ولذلك مارستها .

فالحديث عن التبرير بالإيمان في (رومية ٥) يتبعه الحديث عن الاتحاد بالرب في موته وقيامته في المعمودية في (رومية ٦ : ١ — ٤) . وهكذا نجد نفس الحقيقة في (غلاطية ٣ : ٢٤ — ٢٧) « إذًا قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان . ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب . لأنكم جميعًا أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع . لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح » .

وفي كورنثوس يتحدث الرسول إلى الكنيسة عن الوحدة المسيحية ، وفي حديثه ينبر على نفس الحقيقة إذ يقول « لأني أخبرت عنكم يا إخوتي من أهل خلوي أن بينكم خصومات . فأنا أعني هذا أن كل واحد منكم يقول أنا لبولس وأنا لأبلوس وأنا لصفا وأنا للمسيح . هل انقسم المسيح ألعل بولس صلب لأجلكم أم باسم بولس اعتمدتم » (١كورنثوس ١ : ١١ — ١٣) .

٤ — إننا نحتاج أن نعتمد لنتمتع بقوة المعمودية في حياتنا . ففي المعمودية ، كما يعلمنا الكتاب المقدس ، نطعَّم ونتحد في المسيح وفي كنيسته . والأمثلة كثيرة .. الثلاثة آلاف في يوم الخمسين ، تجديد الرسول بولس ، الخصي الحبشي ، السامريون ، الاثنا عشر رجلاً في أفسس في (أعمال ١٩) ، كرنيليوس ، سجان فيلبي ... إلخ . كل

هؤلاء اختبروا التوبة ، آمنوا ، اعتمدوا ، فمن خلال المعمودية كانت الكنيسة تكرز بالرب يسوع وبعمله — كما في العشاء الرباني — بطريقة منظورة محسوسة ، حتى أن د . فهيم عزيز في كتابه « ملكوت الله » يدعوها « الكرازة بالكلمة المجسمة »[٣٠] إذن المعمودية ليست فقط شهادة ، وليست مكافأة ، إنها مبادرة ، أي إنها تشير وتعلن مبادرة الله في المسيح لخلاص الإنسان ، كما تعلن قبول الإنسان المتعمد لهذه المبادرة الإلهية .

ماذا عن معمودية البالغين ؟
ولماذا نقوم بمعمودية الأطفال ؟

في معمودية البالغين نقول ، نعم ، نحن نعمد البالغين الذين لم يسبق لهم المعمودية ، والذين يدركون ويعبرون عن توبتهم وإيمانهم ، والمعمودية لهؤلاء شهادة على الحياة الجديدة التي لهم في المسيح ، وبها يدخلون إلى مجتمع الرب الجديد ، ويصبحون أعضاء في كنيسة المسيح .

كما أن الآيات والأحداث التي تظهر ذلك في العهد الجديد ، مرتبطة بالبعد والخلفية التاريخية التي تمت فيها . فلقد كانت المسيحية في نشأتها الأولى ، وكل من كان يقبل الإيمان والإعلان المسيحي ، كان من اليهود أو من الوثنيين ، وقد كانوا في غالبيتهم من الكبار ، كما نرى في سفر الأعمال « وبأقوال أخرى كثيرة كان يشهد لهم ويعظهم قائلاً اخلصوا من هذا الجيل الملتوى . فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس . مسبحين الله

ولهم نعمة لدى جميع الشعب وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون » (أعمال ٢ : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧) .

معمودية الأطفال

على أننا لو نظرنا إلى الوحي المقدس نظرة أشمل ، نبني على أساسها مفهومنا « اللاهوتي » الذي نحن بصدده في هذه الدراسة ، والذي لا يتوقف أمام آيات بمفردها هنا أو هناك ، بل يبني على روح الكلمة المقدسة . وإذا أخذنا أيضًا في الاعتبار « إطار » المعمودية الذي قدمناه سابقًا ، وهو الإطار الجماعي لا الفردي ، الكنيسة التي هي جسد المسيح ، بل الكنيسة « في المسيح » الذي هو نسل إبراهيم الواحد الذي قيلت فيه المواعيد (غلاطية ٣ : ١٦) ، لاستطعنا أن نرى مكانًا واضحًا لمعمودية الأطفال في تعليمنا الكتابي وفي فكرنا اللاهوتي .

١ ـــ فنحن نعمد أطفالنا على أساس عمل المسيح من أجل الكنيسة ككل ، وبإيمان الكنيسة المتمثل في إيمان الوالدين في حضور شعب الرب . والطفل الذي هو جزء عزيز من شعب الرب ، والذي يدخل في العهد ، ننتظر أن نتيح له كلما كبر جو الفهم والمعرفة للرب ، حتى ينمو ويعبر عن هذا الاختبار والجو الذي عاش فيه بنفسه . وفي البالغ والطفل نتوقع الفهم الدائم والنمو المستمر .

٢ ـــ وإن كانت المعمودية ، كما فهمنا ، هي تعبير وإشارة وعلامة على الدخول في العهد الذي بين الله وبين شعبه ، فالأطفال ـــ بالطبع ـــ هم ضمن هذا الشعب ، وداخل هذا العهد في كل

مراحله التي درسناها معًا عندما توقفنا أمام المفهوم الكتابي للمعمودية . ففي العهد مع إبراهيم يقول له الرب « وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًا . لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك . وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا . وأكون إلههم . وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي . أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختتنون في لحم غرلتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانًا وليد بيتك والمبتاع بفضتك . فيكون عهدي فى لحمكم عهدًا أبديًا » (تكوين ١٧ : ٧ ــ ١٣) .

٣ ــ كما أننا نستطيع بسهولة أن نلاحظ في الأعداد المشار إليها من (تكوين ١٧) ، أن علامة العهد كانت الختان ، وأن الختان كان للأطفال الصغار « ابن ثمانية أيام » . وإذا كانت المعمودية في العهد الجديد هي علامة العهد ، كمقابل للختان في العهد القديم ، فلماذا لا تكون للأطفال ؟

٤ ــ وعندما خرج الشعب القديم من مصر ، وعبروا البحر الأحمر بقيادة موسى ، واعتمدوا في البحر وفي السحابة ، كانوا كل الشعب الكبار والصغار معًا . وعندما أقام الله عهده من نوح وأشار إليه بدخول الفلك الذي بناه مع عائلته ، كان هذا معه ومع بنيه عندما قال له الله « ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك

وامرأتك ونساء بنيك معك » (تكوين ٦ : ١٨) . فإن كانت هذه الأحداث تشمل الكبار والصغار معًا ، فالمعمودية في العهد الجديد تشمل الكبار الذين يأتون إلى الرب من بعيد ، كما تشمل أطفال شعب الرب أيضًا .

٥ ــ ويتحدث العهد الجديد عن أسر تعمدت بأكملها ، بكل أفرادها ، وبالقطع كان من بين الذين تعمدوا أطفال هذه الأسر . فمثلاً هناك أسرة سجان فيلبي « وكلماه وجميع من في بيته بكلمة الرب . فأخذهما في تلك الساعة من الليل وغسلهما من الجراحات واعتمد في الحال هو والذين له أجمعون . ولما أصعدهما إلى بيته قدم لهما مائدة وتهلل مع جميع بيته إذ كان قد آمن بالله » (أعمال ١٦ : ٣٢ ــ ٣٤) . وأسرة ليديا بائعة الأرجوان « فلما اعتمدت هي وأهل بيتها طلبت قائلة إن كنتم قد حكمتم أني مؤمنة بالرب فادخلوا بيتي وامكثوا فألزمتنا » (أعمال ١٦ : ١٥) . وأسرة استفانوس التي عمدها الرسول بولس بنفسه إذ يقول « وعمدت أيضًا بيت استفانوس » (١ كورنثوس ١ : ١٦) .

٦ ــ والرسول بطرس يقول للذين نخسوا في قلوبهم نتيجة عظته في يوم الخمسين « لأن الموعد هو لكم ولأولادكم ... » (أعمال ٢ : ٣٩) . وأما الرسول بولس وهو يناقش مشاكل الأسرة في كنيسة كورنثوس فيعلم أن الأولاد مقدسون حتى وإن كان أحد الوالدين غير مؤمن ، ولذلك يقول « أما الباقون فأقول لهم أنا لا الرب إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضي أن تسكن معه فلا يتركها . والمرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضى أن يسكن معها فلا

تتركه . لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل . وإلا فأولادكم نجسون . وأما الآن فهم مقدسون » (١ كورنثوس ٧ : ١٢ — ١٤) .

٧ — والرب يسوع نفسه أحب الأطفال جدًا ، وشدد على أهمية قيمة الطفل في كنيسته وبين شعبه ، لدرجة أنه لا ينادي بأن ينتظر الطفل حتى البلوغ ليكون مستحقًا الملكوت ، بل نادى بأن على البالغ أن يكون مثل الطفل لكي يدخل ملكوت السموات « في تلك الساعة تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين فمن هو أعظم في ملكوت السموات . فدعا يسوع إليه ولدًا وأقامه في وسطهم . وقال الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات » (متى ١٨ : ١ — ٣) .

لقد رأى يسوع نفسه في الطفل عندما قال « من قبل ولدًا واحدًا مثل هذا باسمي فقد قبلني » (متى ١٨ : ٥) . ووضع يديه عليهم وانتهر تلاميذه من أجلهم ، واحتضنهم وباركهم « حينئذ قدم إليه أولاد لكي يضع يديه عليهم ويصلي فانتهرهم التلاميذ . أما يسوع فقال دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات . فوضع يديه عليهم ومضى من هناك » (متى ١٩ : ١٣ — ١٥) ، « وقدموا إليه الأولاد لكي يلمسهم وأما التلاميذ فانتهروا الذين قدموهم . فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ وقال لهم دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله . الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله . فاحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم » (مرقس ١٠ : ١٣ — ١٦) .

٨ ــ عندما كانت العائلات من الأمم الوثنية الأخرى Praselytes تريد الدخول إلى اليهودية ، كانت العائلة تعمد بالكامل ، الكبار والصغار معًا . وكانت تحدث ، كما يقول مايكل جرين Michael Green في كتابه عن المعمودية ، ثلاثة أمور . الأولى على رب العائلة أن يقدم بعض الذبائح ، والثاني على الذكور في العائلة أن يختتنوا ، والثالث أن يُعمد كل أفراد العائلة للتطهير والغسل من النجاسات الأممية(٣١) .

هذه المعمودية ، معمودية الدخلاء من الأمم إلى اليهودية ، سابقة على المعمودية المسيحية ، وتختلف عنها في معناها وأساسها ، ولكن من الواضح أن المعمودية المسيحية تأثرت بها بعض الشيء ويؤكد هذا إيريمياس Jeremaias في كتابه الرائع « معمودية الأطفال في القرون الأربعة الأولى » ، والذي قدم فيه بعض التفصيلات عن كيفية تأثر المعمودية المسيحية بعمودية الدخلاء ، وبعض التشابه في اللغة المستخدمة والممارسات ، وبعض العبارات التي تقال عن الشخص الدخيل المعمَّد مثل « كطفل مولود حديثًا » « خليقة جديدة » ، « أقيم من الموت » ، « ولد جديدًا » ، « غُفرت خطاياه » ، « مقدس للرب » .

معمودية الأطفال وشهادة تاريخ الكنيسة

مارست الكنيسة في عصورها الأولى معمودية الأطفال . وهناك الكثير الذي يثبت أن المعمودية الأطفال قديمة في تاريخ الكنيسة(٣٢) :

١ ــ في حوالي ٢١٥ ميلادية أشار اللاهوتي الروماني هيبوليتس

في كتابه المعروف باسم « التقليد الرسولي » Hippolytus (وفي صفحة ٢١) إلى معمودية الأطفال من خلال بعض القواعد التي أرساها مثل قوله : « أولاً ، يجب معمودية الصغار ، كل الذين يستطيعون الكلام يعبرون عن أنفسهم ، ولكن الذين لا يستطيعون الكلام يتكلم عنهم الوالدان ، أو شخص آخر في العائلة ، ثم يعمد الذكور الكبار ، وأخيرًا النساء » .

٢ ــ ويؤيد بوليكاربوس Polycarp (٦٩ ــ ١٥٥م) بحياته الشخصية معمودية الأطفال ، فهو الذي يقول عند استشهاده كيف أنه خدم الله ستًا وثمانين سنة وكان الله أمينًا له .. الخ . وكأني به يريدنا أن نفهم أنه جاء إلى المسيحية من صغره في المعمودية .

٣ ــ وربما نفس الشيء مع أوريجانوس Origen الذي ولد في عام ١٨٥م لأسرة مسيحية . وهو يقول في تفسيره لرسالة رومية ٦ : ٥ ــ ٧ « لهذا السبب أخذت الكنيسة تقليد معمودية الأطفال أيضًا من الرسل » .

٤ ــ ويذكر أحد الكتاب المسيحيين الأوائل وهو جستن Justin (١٠٠ ــ ١٦٥م) أن عددًا كبيرًا من الرجال والنساء الذين كانوا تلاميذ للرب يسوع ، جاءوا إلى الإيمان من طفولتهم .

٥ ــ ويقول ايريناوس Irenaus (١٣٠ ــ ٢٠٠م) الذي يعد من أعظم معلمي الكنيسة الأولى « لقد جاء المسيح ليخلص كل الذين ولدوا ثانية لله بواسطته ، سواء كانوا أطفالاً أو صغارًا

أو أولادًا أو شبابًا أو كبارًا . لقد عبر المسيح إلى كل عمر ، أصبح طفلاً للأطفال، وهكذا قدَّس الأطفال ... الخ .

٦ ـــ وماذا عن ترتليانوس Tertullian (١٦٠ ـــ ٢٢٠م) والذي عاش في شمال أفريقيا ، في أواخر القرن الميلادي وأوائل القرن الثالث تقريبًا في عام (٢٠٥) ، كان هناك خلاف بين ترتليانوس وكبريانوس[٣٣] . فبينما يطلب ترتليانوس أن يعمد الطفل عندما يعي معنى المعمودية ، أصرّ كبريانوس على تعميد الطفل حتى اليوم الثامن من عمره ، كما كان في حالة الختان في العهد القديم . ونحن لا يعنينا مدى الخلاف بين الاثنين ، بقدر ما يعنينا إثبات أن الكنيسة المسيحية كانت تعمد الأطفال منذ عصورها الأولى[٣٤] . ولقد كتب ترتليانوس ضمن ما كتب كتابًا عن المعمودية يعتبر من الوثائق الثمينة والتاريخية عن ليتيرجية المعمودية وفاعليتها .

وحتى كنيسة شمال أفريقيا التي ينتمي إليها ترتليانوس ، يؤكد مايكل جرين أنها لم تتأثر برأيه في معمودية الأطفال . ففي سنودس كارثاج Carthage ، بعد ذلك ببضع سنين قرر سبعة وستون أسقفًا عن كل مسيحي أفريقيا أن لا تنتظر معمودية الطفل حتى يومه الثامن كما كان يحدث في الختان في العهد القديم ، بل يجب أن يعمد الطفل فور ولادته ، لأنهم رأوا أن معمودية الأطفال تعبر عن فكر الله في العهد القديم وعن موقف المسيح في العهد الجديد .

كما أنه من الأمانة أن نذكر أن ترتليانوس عند كتابة كتاب

آخر من كتبه يسمى (de Anima) بعد ذلك بعشر سنوات ، كان سعيدًا بمعمودية الأطفال حتى لو لم يكن أحد الوالدين مسيحيًا ، على أساس الربط بين ما جاء في (رسالة كورنثوس الأولى ٧ : ١٤) وبين (يوحنا ٣ : ٥)[٣٥] .

٧ ــ وفي الخلاف الذي كان بين أوغسطينوس وجيروم حول أصل النفس ، وهل مولودة أم مخلوقة ، ونادى أوغسطينوس بأنها تولد مع الإنسان أما جيروم فنادى بخلقها ، قال أوغسطينوس مشيرًا إلى النفس « إن كانت مخلوقة فهي لم ترث خطية آدم ، إذن لماذا نعمد الأطفال ؟ » . وهنا أكد أوغسطينوس أن الأطفال يحملون الخطية الأصلية ، وبالتالي فهم يحتاجون إلى المعمودية ، وهكذا وافقه جيروم في النهاية .

٨ ــ وفي القرنين الثالث والرابع[٣٦] كانت الكنيسة المسيحية تمارس معمودية الأطفال بجانب ممارستها لمعمودية الكبار . كما نادى غريغورى النازيانزى وامبروسيوس بمعمودية الأطفال ، لإعدادهم من الطفولة المبكرة للحياة المسيحية في ملكوت الله[٣٧] .

٩ ــ وإذا أتينا إلى عصر الإصلاح ، نرى مارتن لوثر في كتابه المعروف باسم « الأسر البابلي للكنيسة » ، والذي فيه تحدث عن الأسرار أو الفرائض المقدسة . في هذا الكتاب يربط مارتن لوثر بين الإيمان والمعمودية ، ويعلن أن معمودية الأطفال هي خير تعبير عن الإيمان في وعود الله . هذا الإيمان الذي نراه في الوالدين الذين أحضروا الطفل ، والذي يعبر عن نفسه في حياة الطفل كلما كبر فى هذا الاختيار .

لقد أكد لوثر أن معمودية الأطفال ، هي أفضل تعبير عن العلاقة الصحيحة للخاطيء بالله ، في مجال الخلاص . إن الطفل الصغير غير القادر على شيء ، يرمز ويبرز كيف إن نعمة الله وحدها هي التى تخلص الإنسان ، ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد.[٣٨]

أما كلفن فقد ركز في فكره على ما أسماه « أولوية النعمة » في إطار المعمودية ، وبالتالي رفض حديث القائلين بمعمودية المؤمنين البالغين فقط ، وقال إنهم دائمًا يريدون « الشيء » قبل « العلامة » ، لكن نعمة الله تسبق الاثنين ، الشيء أي الإيمان ، والعلامة أي المعمودية . كما أضاف أن معمودية الأطفال تعمق فكرة الرجاء عند الوالدين بالنسبة لأولادهم[٣٩] .

إننا نستطيع في النهاية أن نقول إن الكنيسة مارست معمودية الأطفال لأعضائها ، وأن هذه المعمودية استمرت عبر تاريخها ، حتى ظهرت اعتراضات الـ Anabaptist في وقت الإصلاح ، ثم عادت أيضًا لممارستها بعد ذلك .

ماذا لو رفض الطفل الإيمان ؟

بعد كل هذا نستطيع أن نجيب على السؤال القائل : وماذا إن كبر الطفل المعمد ولكنه رفض الإيمان ؟ . ولهذا المتسائل أقول ، إن الطفل المعمد الذي اتحد بالرب وبشعبه ، داخل أسرته وكنيسته ، يتمتع بلا شك بالبركات الروحية التي لكنيسة المسيح . ومن خلال عمل النعمة في كل الوسائط والوسائل المتاحة داخل الأسرة والكنيسة ، نتيح له كلما كبر — كما ذكرنا سابقًا — جو الفهم والمعرفة للرب ، حتي ينمو ويعبر عن هذا الاختبار وعن هذه النعمة التي فيها يقيم . أما إذا رفض الرب وعمل النعمة في مرحلة ما من مراحل حياته ،

فيكون كالإبن الضال الذي تمرَّد على أبيه ، وهاجر إلى كورة بعيدة . وهنا يكون على الأسرة والكنيسة أن تقف منه موقف الأب في مثل الإبن الضال ، وموقف المرأة في مثل الدرهم المفقود ، وموقف الراعي في مثل الخروف الضال ، أي موقف المحبة المصلية الباحثة الراجية والمنتظرة ، حتى يعود فتقبله بفرح منشدة « ابني هذا كان ميتًا فعاش وكان ضالاً فوجد » .

إن هذا الإبن الضال عندما يعود إلى بيت أبيه ، لا يحتاج أن يشترى بنوته مرة أخرى ، إنه ابن البيت وما زال . هكذا الطفل الذي رفض الإيمان في الكبر ، ثم يعود إليه في مرحلة ما من حياته لا يحتاج أن يعتمد مرة أخرى . إن معموديته في طفولته ، جو البيت المسيحي المبارك الذي عاش فيه والتراث والأساس الإيماني الكبير الذي استمتع بأجوائه وأريحه في صغره ، والذكريات الروحية التي ما زالت عالقة بفكره ، والصلوات الحارة التي رفعت منه ولأجله دائمًا ، هذه كلها ربما يستخدمها الله بنعمته الفاعلة في عودة الإبن الضال إلى بيت أبيه ، ليستكمل مباشرة ودون تردد ، رحلة الخلاص الشاملة الكبرى في حياته .

لماذا يرفض البعض معمودية الأطفال ؟

إن معمودية الأطفال تبرز بوضوح موضوعية الإنجيل من ناحية ومبادرة الله في الخلاص[٤٠] من ناحية أخرى . إنها تعلن بأعلى صوت وأروع بيان أن خلاصنا يعتمد أساسًا على نعمة الله ، ليس من أعمال كي لا يفتخر أحد . وهى الخَتم الذي على العهد بين هذه

النعمة المتفاضلة وبين تجاوبنا معها ، الكل يتفق على ذلك ، ولكن قلب السؤال هو :

هل تتصل المعمودية أولاً بتجاوب الإنسان ؟ أم بمبادرة النعمة الإلهية ؟

وفي الإجابة على هذا السؤال نختلف . يقول البعض كالمعمدانيين إنها تتصل بتجاوب الإنسان ومن هنا يرفضون معمودية الأطفال . والتجاوب الإنساني هام جدًا وضروري وحيوي جدًا ، خاصة في ممارسات أخرى مثل « التثبيت » Confirmation عند بعض الطوائف . ولكن المعمودية هي علامة محبة الله التي أخذت المبادرة إلينا ، والتي حركت فينا التجاوب وأخرجته إلى حيز الوجود . المعمودية بالنسبة إلى المعمدانيين عمل شهادة ماذا نفعل What we do في تجاوبنا مع نعمة الله ، أما بالنسبة لنا ولكل الذين يمارسون معمودية الأطفال ، فالعمودية تحمل شهادة « ماذا فعل الله What God has done » ليجعل كل ذلك ممكنًا .

يقول John Macquarrie(٤١) إن الأسئلة التي تثيرها معمودية الأطفال تنمو أساسًا في الاختلاف بين « الطقس » وبين « الكلمة » . فعند بعض المذاهب الإنجيلية يتحتم التجاوب الإيماني للمعمَّد بوعيه الكامل وقت المعمودية ، لكنهم في نفس الوقت لا يدركون الأساس والإطار الأشمل لإجراءات المعمودية في الفعل وفي المعنى مثل ما في الكلمات أيضًا . وفي تأثير ذلك ليس فقط على فهمنا الواعي ، بل أيضًا على كل المستويات الهامة التي وراء وخلف الوعي .

إن حقيقة الاتحاد والتطعيم مع وفي شعب الرب أكبر وأبعد من مجرد الفهم الحالي حتى في حالة معمودية الكبار ، وبالتالي فهي أوضح في روعتها في معمودية الأطفال . إن الطفل لا يعي ما يحدث في المعمودية ، ولكنه من خلال وفي المعمودية يطعَّم بطريقة كاملة بجسد المسيح ، ويتحول مركز حياته من فرديته المعزولة إلى الجسد الكبير الذي أصبح عضواً فيه ، مستمتعاً بكل بركات الوجود في شعب الرب . إنها المبادرة الإلهية في النعمة والمصالحة التي ترتبط دائماً بالرب ، ولا تنتظر عملاً ما من الناس ، وبالتالي لا تنتظر الطفل حتى يكبر ويعبر .

وكما أن حياة الطفل محاطة بالنعمة الإلهية ومجتمع الإيمان ، هكذا يدخل الطفل إلى كنيسة المسيح ، وبدون أن يدرك يبدأ في الاستمتاع بخدمة المصالحة . كل هذه الأمور لا ترتبط بالطبع بلحظة من الزمن a moment of time ، إنها حاضرة في المعمودية ، ولكنها تتفتح وتختبر مع النمو مع عامل الوقت a matter of time .

إن رفض معمودية الأطفال ، كما يقول Macquarrie يرجع إلى الفردية المبالغ فيها ، والتي هي خطأ متكرر في بعض المذاهب البروتستانتية الإنجيلية . ثم يضيف ، إن الخطأ أساساً عبارة عن فكرة غير صحيحة موجهة إلى الوجود الإنساني نفسه ، فلا « وجود » لإنسان بمعزل عن وجود الآخرين . وعندما نأتي بهذه الفكرة الخاطئة إلى إطارنا المسيحي ، نكون قد ضيقنا المدى الوجودي لاقتراب الله للإنسان من خلال المسيح وكنيسته .

الفصل السادس

المعمودية والتثبيت

أسئلة هامة

في هذا الفصل نحاول ، قدر الطاقة ، أن نصل إلى إجابة على بعض الأسئلة الهامة التي تثور في داخلنا ومن حولنا .

فبالنسبة إلى التثبيت Confirmation نسأل :

— إن كانت بعض الكنائس تقبل معمودية الأطفال ، فما المقصود « بالتثبيت » ؟
— ومتى جاءت الفكرة ؟
— وما هو الغرض من ممارسته ؟
— وهل له مقابل في كنائس أخرى ؟

وبالنسبة للمعمودية نتساءل :

+ هل هناك صلة بين المعمودية والعشاء الرباني ؟
+ وهل يتناول المعمد من عشاء الرب ؟
+ وهل يتناول الأطفال المعمدون ، طالما أن المعمودية تدخل بهم إلى عضوية كنيسة الرب يسوع ؟

أولاً : التثبيت

الخلفية التاريخية للتثبيت

في العصور الأولى للكنيسة المسيحية كانت المعمودية تشتمل على ثلاثة أمور ، الماء بطرقه المختلفة وهي التغطيس والسكب والرش وهي ترمز إلى الحياة الجديدة ، ووضع الأيدي للأسقف على رأس المعمد كرمز إلى قبوله الروح القدس ، والتناول من عشاء الرب كعلامة على انضمامه للمسيح وللكنيسة .

في نفس الوقت ظهرت بعض الصيغ العقائدية البسيطة في القرن الثاني الميلادي ، وصارت جزءًا من عبادة الكنيسة وصلواتها خصوصًا وقت المعمودية ، وكانت تقال في صيغة قانون إيمان ، مثل الصيغة المعروفة بالصيغة الرومانية[٤٢] . وهي كالآتي .

— هل تؤمن بالله الآب القادر على كل شيء .
— هل تؤمن بيسوع المسيح ابن الله الذي ولد بالروح القدس من مريم العذراء ، والذي صلب في عهد بيلاطس البنطي ومات وقام حيًا في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات ؟
— هل تؤمن بالروح القدس والكنيسة المقدسة وقيامة الجسد ؟

ولعل هذ العبارات كانت النواة لتلك الصيغة الأكمل التي ظهرت في القرن الرابع والمعروفة باسم قانون الإيمان الرسولي .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي تطور طقس المعمودية

إلى ممارسات معقدة ، فكان على المعمد أن يخلع ملابسه الخارجية ، والنساء يرخين شعورهن ويخلعن حليهن ، ثم يجحدون الشيطان وكل أعماله . وكان يفضل إجراء المعمودية في مياه جارية ويغطس المعمَّد ثلاث مرات في الماء باسم الآب والإبن والروح القدس . وكان السكب مسموحًا به ولكن لم يكن هو العادة المتبعة . وعند خروج المعمَّد من المعمودية كان يذوق شيئًا من الشهد واللبن علامة قبوله الولادة الجديدة في المسيح . ثم يدهنه الأسقف بالزيت ويضع رأسه بجانب رأسه علامة على قبوله الروح القدس .

وفي الكنيسة الغربية في بداية القرن الثالث الميلادي كما يذكر هيبوليتس(*) (عندما يذهب الشخص الذي يرغب في المعمودية إلى الماء ، يضع من يعمده يده عليه ويسأله « هل تؤمن بالله الآب القادر على كل شيء ؟ » فيجيب « أؤمن » . وعندها يمسك بيده ويقوم بتغطيسه للمرة الأولى ، ثم يسأله « هل تؤمن بيسوع المسيح ابن الله ، الذي ولد بالروح القدس من العذراء مريم ، وصلب على عهد بيلاطس البنطي ، ومات ودفن وقام ثانية من بين الأموات ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الآب ، وسوف يأتي ليدين الأحياء والأموات ؟ » . وعندما يجيب « نعم أؤمن » يقوم بتغطيسه مرة ثانية . ثم يسأله « هل تؤمن بالروح القدس والكنيسة المقدسة ،

(*) هيبوليتوس Hipplyte

معلم روماني مسيحي يحتمل أنه ولد بين سنتي ١٧٠ ، ١٧٥ ميلادية ، ظهر تأثير تعاليمه في بداية القرن الثالث الميلادي ، كتب كتبًا عديدة باللغة اليونانية منها كتاب (التقليد الرسولي) الذي يعتبر من أهم الكتب التي تصف نظام الكنيسة القديمة بعد كتاب (الدسقولية) .

وقيامة الجسد ؟ » . وعندما يجيب « أؤمن » عندئذ يغطسه مرة ثالثة[٤٣] .

أما في نهاية القرن الرابع الميلادي فقد كان الكهنة يفحصون بعناية فائقة المتقدمين للمعمودية ، ثم يقدمون لهم المعرفة العقائدية الشاملة . وكانت مراسم المعمودية تتم عادة في الأعياد . وكان في الكنائس أحواض تعميد كبيرة حيث يدخل فيه طالبو العماد ليسكب عليهم الماء (لكن لا يتم تغطيسهم بالكامل) . ثم يخرجونهم ويمسحونهم بالزيت ، ويلبسونهم أروابًا بيضاء حتى يرحب بهم شعب الكنيسة ولكي يشتركوا في عشاء الرب .[٤٤] .

هذه الإجراءات والمراسيم كانت طيبة ومقبولة للبالغين من المعمدين . ولكن في حالة معمودية الأطفال تأجلت بعض الإجراءات ـــ في الكنيسة الغربية ـــ أحيانًا لعدم وجود الأسقف دائمًا ، إلى وقت لاحق مثل وضع الأيدي والتناول من عشاء الرب ، حتى يكبر الطفل المعمد ، ويصبح قادرًا على ترديد المواعيد واعتراف الإيمان الذي ردده والداه نيابة عنه عند وقت معموديته ، وعادة يتراوح السن المطلوب لهذه المناسبة ما بين سن ٧ ـــ ١٦ عامًا . ومن هنا بدأت فكرة « التثبيت » Confirmation عند بعض الكنائس مثل الكاثوليك والأسقفيين واللوثريين .

ولكننا نسأل هل هناك أساس كتابي لفكرة التثبيت .. ؟

يقول مايكل جرين ربما يستند أصحاب فكرة التثبيت إلى ما جاء في (عبرانيين ٦ : ١) « لذلك ونحن تاركون كلام بداءة المسيح لنتقدم إلى الكمال غير واضعين أيضًا أساس التوبة من الأعمال الميتة

والإيمان بالله » . ثم يضيف « إن المعمودية تحمل إلينا كل أبعاد الحياة في المسيح ، وفيها نجد قبول الروح القدس والتثبيت » . كما أننا لا نجد في العصور الأولى للكنيسة المسيحية الشرقية أو الغربية ، ما يؤيد فكرة التثبيت . إذن لماذا التثبيت ؟ وما الغرض منه ؟

الغرض من التثبيت

من الواضح أن الغرض من التثبيت غرض مثلث[٤٥] : الأول هو إعلان الإيمان ، لأن الطفل لم يكن قادرًا على التجاوب الواعي للنعمة الإلهية التي جاءت إليه في المعمودية ، وهو يحتاج إلى فرصة فيها يعلن تجاوبه الشخصي مع نعمة الله ، ويعلن توبته وإيمانه الشخصي ، والتثبيت يعطيه هذه الفرصة التي يبحث عنها . وفي التثبيت يثبت الشخص إعلانه المسيحي عن توبته وإيمانه وتكريسه ، ويثبت الرب عن طريق وضع يد الأسقف عليه ، حمايته وقوته له في أيامه القادمة . هذا هو الغرض الأول من التثبيت ، إعلان الإيمان كجزء رئيسي من صميم المبادرة المسيحية « لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت . لأن القلب يؤمن به للبر والفم يعترف به للخلاص » (رومية ١٠ : ٩ و ١٠) .

الغرض الثاني هو الانضمام للطائفة التي يتبعها الشخص من خلال كنيسته المحلية . المعمودية هي تطعيم المعمد في المسيح وفي كنيسته في كل مكان في العالم ، ولكن التثبيت ، وما يشابهه في بعض الكنائس الأخرى مثل فكرة « الانضمام » إلى عضوية الكنيسة المحلية عندنا في الكنيسة المشيخية ، هو انضمام للكنيسة المحلية وبالتالي للطائفة التي تتبعها .

أما الغرض الثالث فهو التكريس للخدمة ، ويشتمل على صلاة أن يحفظ الرب الشخص له دائمًا ، ناميًا في روحه مثمرًا في خدمته . إنه حفل أو خدمة تكريس لهذا الشخص لدور ولرسالة ، وليس حفل تخرج كما هو شائع .

ثانيًا : المعمودية
صلة المعمودية بالعشاء الرباني

يكتب الرسول بولس مرات عن المعمودية وعن العشاء الرباني معًا في نفس الموقف والفصل في مواضع كثيرة من كتاباته مثلاً في (١كورنثوس ١٠ : ٢ و ٣ ، ١٢ : ١٣ ..) .. الخ . وفي ربطه الاثنين معًا في تاريخ الفداء ولعل ما يؤيد ذلك هو أنه يربط الاثنين بالمفهوم الجديد الذى اقترن باسمه وهو مفهوم الكنيسة كجسد المسيح . فالعشاء الرباني والمعمودية يرتبطان بهذا المفهوم الخاص بالرسول ارتباطًا وثيقًا كما سبق ورأينا[٤٦] .

وهناك ارتباط ثان لهذين العملين المقدسين يوضحه الرسول وهو ارتباطهما بموت الرب . فالمعمودية هي رمز اتحاد بالرب في موته ، والعشاء الرباني هو المشاركة في جسد المسيح ودمه .

في هذين الارتباطين تنكشف لنا الصلة العملية واللاهوتية بينهما في تاريخ الفداء ، فالمعمودية هي الدخول والارتباط بالجسد أي الكنيسة ، والعشاء الرباني هو ترابط ذلك الجسد المتكرر والمتجدد في تناول عشاء الرب . وفي هذا أيضًا يكمن التميز بين الاثنين في

عملهما بالنسبة لجسد الرب . فالمعمودية ترتبط وتحقق التحول من « ميت عن الخطية » إلى « حي لله » (رومية ٦ : ١١) ومن الإنسان العتيق إلى الإنسان الجديد . وبهذه الصفة فهي تحدث مرة واحدة فقط ولا يجوز أن تكرر .

أما العشاء فهو الإعلان المستمر عن مجد الخلاص الذي يأتي بموت المسيح . إنه الطعام الروحي والشراب الروحي اللذان يحتاج إليهما المؤمن في زمان ما بين الأزمنة ، أي زمن الكنيسة ، بين مجيء المسيح الأول ومجيئه الثاني ، تمامًا كما كان المن السماوي والماء الروحي الذي خرج من الصخرة ـــ التي تابعت الشعب في البرية في المدة ما بين خروجه من مصر ودخوله إلى أرض كنعان ـــ فالعشاء بهذه الكيفية يمثل ما قد حدث في عملية الخلاص « تخبرون بموت الرب » ، وما سوف يحدث « إلى أن يجيء » (١كورنثوس ١١ : ٢٦) . إنه وليمة الفصح التي بنيت على الذبيحة التي قدمها الرب، ولكنه أيضًا وليمة تشير إلى المسيا حيث يجلس السيد الممجد مع كنيسته الممجدة ويأكله جديدًا في ملكوت السموات (متى ٢٦ : ٢٩ ، لوقا ٢٢ : ١٨) . وعلى هذا يعمل تقديس شعب الرب في حياة طاهرة ترتفع عما نجس الشعب قديمًا ، وعن نجاسات الأصنام أيضًا . وهكذا يضع ريدربوس مفهوم الاثنين معًا في هذه الكلمات الجميلة : « المعمودية إذًا تفتح الطريق للكنيسة حيث تسير الكنيسة في رفقة عشاء الرب ، في رابطة الشركة التي تتجدد في العشاء كرابطة العهد الجديد ، رابطة جسد المسيح تحت إرشاد وقيادة الروح القدس » .

المعمودية والتناول من العشاء الرباني

رأينا أن المعمودية في عصور الكنيسة المسيحية الأولى كانت تشتمل على الماء بطرقه المختلفة ، وعلى وضع الأيدي ، وعلى التناول من عشاء الرب . كما رأينا أن الكنيسة الغربية بعد أن كانت تقدم العشاء الرباني للأطفال ، أجلت التناول مع وضع اليد ، إلى مرحلة أكبر في عمر الطفل المعمَّد ، وهكذا بدأت فكرة التثبيت ، وأصبحوا يقدمون العشاء الرباني في التثبيت وليس في المعمودية . وحجتهم في ذلك واضحة ، وهي أن يكون الأطفال على دراية وإدراك ومعرفة لما يقومون به عند الاقتراب إلى فريضة مركزية في إيماننا المسيحي كعشاء الرب .

وقد حاولت الكنيسة المعمدانية الرد على الكنيسة الأسقفية ، وتساءلت قائلة : إن كانت الكنيسة الأسقفية تعلن أن المعمودية هي طقس الدخول إلى كنيسة المسيح ، فلماذا تتصرف في التثبيت كأنه بديل للمعمودية ؟ — وكأنه هو طقس الدخول إلى الكنيسة ؟ . كما قررت الكنيسة المسيحية المتحدة في الولايات المتحدة الأمريكية ، في المحفل العام دورة ١٨٣ في سنة ١٩٧١ ، جواز تقديم الأطفال لمائدة العشاء على أساس رغبة والديهم وموافقة مجلس الكنيسة لكل حالة على حدة(٤٧) .

كما أن أصواتًا كثيرة من اللاهوتيين لا يقتنعون بحرمان المعمَّد ، سواء كان من البالغين أو من الأطفال من عشاء الرب . وفي حالة معمودية الأطفال بالذات ، أوردوا عدة أسباب رعوية ونفسية واجتماعية ولاهوتية تؤيد رأيهم(٤٨) .

فمن الناحية الرعوية اختبروا عدم نجاح فكرة تأجيل تقديم المائدة إلى الطفل إلى وقت التثبيت أو الانضمام ، بسبب العدد الكبير الذي لا يقبل على هذه الخطوة ويبتعد عن الكنيسة ، في مرحلة حرجة من عمره ، هي مرحلة المراهقة . وهكذا من الناحية النفسية إذ يجيء التثبيت في بدء أو أثناء مرحلة المراهقة الحافلة بكل المتغيرات والمتفجرات ، وعدم الاستقرار في شخصيته ، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات الكبرى ، التي قد تؤثر على كل حياته الدينية في المستقبل ، بصورة سليمة وسديدة .

ومن الناحية الاجتماعية يشعر الطفل الذي نمنع عنه المائدة ، أنه مواطن من الدرجة الثانية في الكنيسة ، وأنه معزول عن والديه في هذا المجال ، وأن هناك فاصلاً يحول دون اندماجه الكامل في الكنيسة ومع والديه ، وبالتالي يشعر بعدم أهميته في مجتمع الرب . وربما يدفعه هذا الشعور إلى عدم الإقبال على عشاء الرب في المستقبل ، وإلى تجاهل قوة وفاعلية العشاء الرباني ، عندما يكون في أشد الحاجة إليه في مرحلة الاضطرابات الكبرى ، مرحلة المراهقة .

إن كنا نستطيع أن نصم آذاننا عن الجوانب الرعوية والنفسية والاجتماعية ، فماذا نحن فاعلون بالجانب اللاهوتي ؟ . والسؤال هنا ، هل المعمودية هي سر وفريضة المبادرة المسيحية أي الدخول إلى كنيسة المسيح ، والتطعيم في الرب وفي شعبه ، أم لا ؟ . وإن كنا قد أدركنا تمامًا من دراستنا السابقة أنها كذلك ، إذًا ينبغي أن نعيد التفكير في هذا الأمر ، وأن نسمح للأطفال المعمدين بالتناول من المائدة مع والديهم . ولقد أدركت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية هذه

الجوانب كلها ، عندما علّمت وتُعَلِّم بضرورة تقديم عشاء الرب إلى الأطفال المعمدين كما أن الكنيسة الكاثوليكية ، في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ــ ١٩٦٥) وفي الجزء الثالث من الوثائق المجمعية ، والفصل الثالث من هذا الجزء ، نادت بالآتي « بدلاً من الطقس الذي يدعي « رتبة تكميل » ما نقص في عماد طفل ، يجب وضع نظام جديد يوضح بطريقة أكثر جلاء وملاءمة أن الطفل الذي عمد من قبل بطقس مختصر قد سبق وانضم إلى الكنيسة »(٤٩) . وإن كنا نؤمن أن المعمودية هي سر وفريضة الدخول إلى كنيسة المسيح ، الجسد الكبير في كل مكان في العالم ، إذن يمكن أن يبقى التثبيت بالنسبة للكاثوليك والأسقفيين ، والانضمام بالنسبة للمشيخيين ، كفرصة للإعلان الشخصي والعلني عن الإيمان ، وكفرصة للإنضمام للكنيسة المحلية وبالتالي للطائفة ، التي تتبعها .

على أن هناك بعض الاعتراضات المخلصة والموضوعية على تقديم العشاء الرباني للأطفال(٥٠)مثل :

أولاً : ما أثاره كالفن أن العشاء الرباني ليس للأطفال ، لعدم توافر شرط إمتحان النفس . قبل التقدم للمائدة ، كما هو واضح في حديث الرسول بولس في (١كورنثوس ١١ : ٢٨) « ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس » . والأطفال الصغار لا قدرة لهم لامتحان النفس .

ثانياً : الكنائس الأرثوذكسية التي تشجع تقديم العشاء الرباني للأطفال ، وتقوم به دائمًا ، تفعل ذلك طبقًا لإيمانها في فاعلية الأسرار الكنسية في حد ذاتها ، وبالتالي فالعشاء الرباني له فاعلية عظمى في

حد ذاته عندما يقدم للطفل . على أن هناك العدد الكبير من الكنائس التي لا تؤمن بفاعلية الأسرار أو الفرائض الكنسية في حد ذاتها ، ولكن لا بد من توافر شرط الإيمان المدرك والواعي .

ثالثاً : عندما نقدم العشاء الرباني للأطفال بهذه الصورة ، لا نشجعهم على إدراك ضرورة وأهمية الاختبار الشخصي في علاقتهم بالرب عندما يكبرون . طالما أن الفكرة السائدة من حولهم وفيهم ، أنهم أصبحوا مسيحيين بالمعمودية والتناول من المائدة ، ولا حاجة لهم إلى الاختبار الشخصي أو العلاقة الشخصية بالرب .

والسؤال الطبيعي الذي يفرض نفسه علينا ، أين نحن بين هذه الآراء المختلفة ؟ . وهنا أقدم بعض الاقتراحات من وجهة النظر الشخصية ، على ضوء هذه الدراسة .

أولاً : على الكنيسة عامة أن تدرس هذا الموضوع الهام ، وأن تصل من خلال الدراسة والحوار إلى اتجاه عام لكل الكنائس ، بدلاً من التصرف الفردي لكل كنيسة محلية على حدة . وهذا هو الحل الأمثل لو أن الكنيسة العامة تعطي أولوية دائمة للفكر الذي يطور الممارسة .

ثانياً : أن لا يكون تناول الأطفال قاعدة عامة ، بل أن تدرس الكنيسة المحلية كل حالة على حدة ، وأن تتأكد من رغبة وحكمة الوالدين في تقدم أبنائهم إلى المائدة ، ومن رغبة جادة وإدراك الأولاد أنفسهم . هذا يعني أن لا يكون الأطفال في أيامهم الأولى أو أعوامهم الأولى بل في سن تسمح لهم بمحاولة الفهم والإدراك .

الفصل السابع

إعادة المعمودية

في هذا الفصل لا بد أن نقف أمام بعض الأسئلة التي تطرح نفسها علينا ، ومحاولة الإجابة عليها ، مثل :

١ ــ إن كانت المعمودية كما رأينا هي علامة الإتحاد بالرب ، وسر الدخول إلى كنيسة المسيح وإلى الحياة المسيحية ، فكيف يمكن إعادتها مرة ثانية ؟

٢ ــ ولماذا تطلب بعض الكنائس ، أو بعض الأفراد ، إعادة المعمودية ؟

٣ ــ ولماذا يرون شيئًا من النقص أو عدم الصلاحية الكاملة للمعمودية الأولى ؟

٤ ــ وما هو الخطأ في طلبهم هذا ؟

٥ ــ وكيف نكمل مسيرة المحبة المسيحية ، ونعمق الروح المسكونية ؟

هناك أسباب مختلفة لطلب إعادة المعمودية ، وسوف نحاول أن نذكر أهم هذه الأسباب والرد الموضوعي عليها :

أولاً : الكنائس أو المذاهب الإنجيلية

١ ـــ الإيمان والإقرار العلني

قد يكون من بين الأسباب التي يطلب البعض لأجلها إعادة المعمودية ، أنهم يرون في معموديتهم الأولى غيابًا لشروط المعمودية الواردة في بعض الآيات الكتابية التي تتحدث عن المعمودية ، مثل الإيمان الشخصي للمعمَّد والإقرار والإعتراف العلني بهذا الإيمان .

وقد يكون هؤلاء من بين الذين اختبروا الرب في الكبر ، على طريقة بعض المذاهب الإنجيلية مثل المعمدانيين أو غيرهم ، أو بعض الإتجاهات الأخرى مثل Church of Christ .. إلخ .

هؤلاء ينظرون ببعض الشكوك إلى معموديتهم الأولى وهم أطفال ، فالكتاب في بعض الآيات يعلم بوضوح عن حتمية وجود الإيمان قبل المعمودية « من آمن واعتمد .. » ، وهم لم يكونوا على دراية أو قدرة على إدراك الإيمان في ذلك الوقت ، وبالتالي لم يتم الإعتراف العلني ، ولذلك يطالبون بإعادة المعمودية مرة أخرى .

ولهؤلاء نقول إن المعمودية كما رأينا في الفصول السابقة ، هي علامة الإنتماء للرب ولشعبه ، وهي شارة اليقين في فيض وفضل النعمة الإلهية ، فكيف نقترب إليها في شكوك ؟ وهل كان اليهودي الذي اختتن ينظر بشكوك إلى ختانه ؟

إن الإيمان في المعمودية هو إيمان الثقة والإعتماد والقبول ، المتمثل في إيمان الكنيسة التي هي مجتمع الإيمان ، وبالتالي في إيمان الوالدين

الذين هم أعضاء هذه الكنيسة ، والمتمثل أيضًا في الطفل المعمَّد ، الذي جعله السيد مثالاً لكل من يريد أن يدخل ملكوت السموات ، في بساطته واعتماده وقبوله وسرعة تجاوبه . وهو إيمان الطاعة الذي يعيش فيه هذا المعمَّد كل أيام حياته على الأرض ناميًا ومتقدمًا « من إيمان لإيمان » في كل معرفة وفهم روحي . من هنا نرى أن المعمودية ليست خبرة مؤقتة بل نموًا في المسيح يدوم مدى الحياة[٥١] .

كما أن المعمودية ليست شهادة على الإيمان ، بقدر ما هي شهادة على نعمة الله التي احتضنتني وغمرتني ، ووحدتني مع المسيح ، ودخلت بي إلى كنيسته ، وجعلتني عضوًا في ملكوت الله . أما الإيمان والتوبة فهما بمثابة اليدين اللتين بهما نقبل العطية . وعلى هذا الأساس ، نحن نعمد البالغين المؤمنين الذين لم يسبق لهم معمودية ، كما نعمد أطفال المؤمنين ، كما ذكرنا ذلك بتوسع في الفصل الخاص بمعمودية البالغين ومعمودية الأطفال . إن المعمودية هي المعمودية ، وطالما أن كنيسة الرب يسوع قد مارستها باسم الآب والابن والروح القدس ، فلا يجوز أن تعاد على الإطلاق .

أما بالنسبة للتعبير والاعتراف العلني ، فهناك الفرص المختلفة كما ذكرنا سابقًا ، فكلما كبر الطفل ونما في الإدراك ومعرفة الرب في مراحل حياته المختلفة في الكنيسة ، عليه أن يمارس هذا التعبير وهذا الإعلان . وفى بعض الكنائس تكون مناسبة « التثبيت Confirmation » هى فرصة التعبير والإعلان عن الإيمان الشخصي مثل الكنائس الكاثوليكية والأسقفية . وفي الكنيسة المشيخية تأتي مناسبة الانضمام إلى الكنيسة كفرصة مماثلة للتعبير والإعلان عن الإيمان الشخصي ، كما هو واضح في العهود التي تأخذها الكنيسة على كل عضو جديد .

كما أن الكنيسة نفسها ، في المعمودية ، تمارس هذا الإقرار ، وتحمل هذه الشهادة ، بحضور كل الشعب . إنها تمارس ذلك في كل أجزاء العبادة ، في كلمات الراعي ، في إحضار الوالدين للطفل ، وفي العهود التي تؤخذ على الوالدين أمام كل الشعب ، حول اعترافهم يوم قبولهم في الكنيسة وحول مسئوليتهم تجاه الطفل المعمَّد ، إذ تقول هذه العهود التي تؤخذ على الوالدين أو أولياء الأمور أسئلة كالآتي :

ـــ هل تجدد ما اعترفت به يوم قبولك في عضوية الكنيسة ؟

ـــ هل تعد أن تربي أولادك تربية مسيحية في تأديب الرب وإنذاره ؟ وأن تعلمهم الحقائق الإنجيلية عن الخلاص ؟ وتصلي معهم ولأجلهم ؟ وتعبد الله في عائلتك بمواظبة وانتظام ؟ وأن تكون أمامهم مثالاً للتقوى في القول والسلوك ، وأن تستعمل كل الوسائط المعينة لخلاصهم ؟ . وهكذا يكون بنونا كالغروس النامية في بيت الرب ، وبناتنا كأعمدة الزوايا منحوتات حسب بناء الهيكل .

أما في حالة المعمَّدين البالغين الذين لم يسبق لهم العماد ، فيعمدون بناء على الاعتراف الجهاري بإيمانهم بالمسيح وطاعتهم له ، في صيغة السؤال التالي :(٥٢)

هل تعترف أمام هذه الكنيسة بإيمانك بالمسيح وعزمك على أن تعيش عيشة مسيحية ؟ وتجاهر بتعهدك أن تربي روح الشركة المسيحية والمحبة الأخوية ؟ وأن تلتمس خير هذه الكنيسة ما دمت عضوًا فيها ؟

٢ ـــ المشاعر والأحاسيس

كما أن البعض الآخر كالرسوليين والخمسينيين والكاريزماتيين عمومًا ،

يضيفون جانبًا آخر عندما يطلبون إعادة المعمودية ، هذا الجانب هو جانب المشاعر ، بمعنى أنهم لم يختبروا في معموديتهم الأولى المشاعر الفياضة التي يسمعون أنها تصاحب المعمودية .

إن المعمودية ، كما رأينا ، تشير إلى الدخول إلى الحياة المسيحية ، وليس إلى المشاعر والأحاسيس . وهي اتحاد بالرب يسوع في موته وقيامته ، واندماج في كنيسته ، وليست شعورنا نحوه . وهي علامة على الحياة الجديدة في العهد مع الله ، وليست إثارة لمشاعر جديدة ، ويجب أن نميز بوضوح بين الاثنين .(٥٣)

إن الاعتماد على الشعور فقط في المعمودية ، يؤذي ويعيق تمامًا التلمذة المسيحية الحقيقية . فهو يتجاهل موضوعية الإنجيل ، الذي ترمز إليه المعمودية ، ويحوله إلى مجرد وسيلة لإشباع مشاعرنا .

٣ ــ فكرة « التكريس »

والغريب أن هؤلاء وأولئك الذين ينادون بإعادة المعمودية ، لأن المعمودية الأولى عندما كانوا أطفالاً ، لم تحقق لهم هذه الجوانب ، ولم يصاحبها الإيمان الشخصي والإقرار العلني والمشاعر والأحاسيس الفياضة ، أقول هؤلاء يصرون على ممارسة « التكريس **dedication** » للطفل الصغير . وفي خدمة التكريس يُقدم الشكر لله من أجل الخلاص ، ويتعهد الوالدان بتربية الطفل في الإيمان المسيحي ، وترفع الصلوات من أجل الطفل والعائلة ككل ، ويضع الخادم يده على رأس الطفل أثناء صلاة التكريس .(٥٤)

أليست هذه الممارسات شبيهة إلى حد كبير بالمعمودية ؟ وبغض

النظر عن متى دخلت فكرة « التكريس » إلى ممارسات هذه الكنائس ، سواء في القرن التاسع عشر كما يقول بعض المعمدانيين ، أو من أيام العصور الوسطى وقبلها كما يقول البعض الآخر . وسواء في هذا التاريخ أو ذاك ، وسواء أرجع البعض منهم فكرة التكريس إلى تقديم الطفل يسوع في الهيكل (انظر لوقا ٢ : ٢٢ ـ ٤٠) ، أو أرجعها البعض الآخر إلى تقديم حنة لابنها صموئيل إلى الرب طوال حياته (انظر صموئيل الأول والأصحاحين الأول والثاني خاصة ١ : ١١ و ٢٢ و ٢٨) ، أو أرجعها آخرون إلى بركة يسوع للأطفال في قصص الأناجيل (انظر متى ١٩ : ١٣ ــ ١٥ ، مرقس ١٠ : ١٣ ــ ١٦ ، لوقا ١٨ : ١٥ ــ ١٧) .

أقول أيًا كان التاريخ ، وأيًا كان المرجع الذي يرجعون إليه في تبرير فكرة التكريس ، والردود المثارة على هذه المراجع كلها حول هدف ومغزى ومضمون كل مرجع ، فالفكرة في صميمها محاولة لإعادة التوازن ، على شكل حل وسط ، في موقف هذه الكنائس . بمعنى أنه لا يمكن كتابيًا ولاهوتيًا ، تجاهل موقع ومكانة الأطفال على الإطلاق ، في إنجيل عهد النعمة ، وفي كنيسة الرب يسوع .

ثانيًا : الكنائس التقليدية

إن كانت الأسباب الأولى تأتي غالبًا من بعض المذاهب الإنجيلية ، فهذه الأسباب تأتي عادة ، وفي معظم الأحيان ، من الكنائس التقليدية عامة ، ومن الكنيسة الأرثوذكسية خاصة . فهم يطلبون إعادة المعمودية ، لأن المعمودية الأولى لم تكن بالتغطيس من ناحية ، ولم يقم بها « كاهن » من الناحية الأخرى .

١ ـــ طرق المعمودية

أما من ناحية طرق المعمودية فنقول : إنه لو كانت طريقة التغطيس هي وحدها الطريقة الشرعية للمعمودية ، فلماذا لم تذكر هكذا صراحة في الكتاب المقدس ؟ لقد كانت المعمودية معروفة في أيام العهد الجديد ، ولذلك لم يتعرض لها العهد الجديد بالشرح الكثير ، ولا بكيفية ممارستها . بل كما يقول بيركهارت Burkhart ، حتى الرسول بولس لم يتحدث عنها كطقس في حد ذاتها ، لأنها كانت معروفة بين المسيحية ، ولكنه ركز على مفهومها وتطبيقاتها الأخلاقية والسلوكية .

ويعتقد البعض أن الكنيسة المسيحية الأولى كانت تعمد الناس بالتغطيس ، وهذا جائز جدًا جريًا على النظام الذي كان يوحنا المعمدان يعمد به في نهر الأردن ، ولكن هناك حالات كثيرة يظهر منها استحالة العماد بالتغطيس ، مثل عماد الثلاثة آلاف الذين آمنوا يوم الخمسين .(٥٥)

وكيف تعمد سجان فيلبي مع بيته بالتغطيس في منزله الخاص ؟

أليس بالأولى ، والأقرب إلى الواقع ، أنه تعمَّد بنفس الماء الذى به طهر جروح المسجونين ، بولس وسيلا ، من آثار المقطرة ؟[٥٦] ، وألا نرى نفس الطريقة في معمودية الرسول بولس (أعمال ٩) ومعمودية كرنيليوس (أعمال ١٠) .

وتاريخ الكنيسة يثبت ، كما جاء في كتاب « تاريخ الآباء في القرون الثلاثة الأولى صفحة ٥١ » ، أن المعمودية تكون في ماء حار ، فإن لم يكن عندك ففي ماء بارد ، أو في ماء دافيء ، وإن لم يكن لديك كلاهما ، فصب بعض الماء على الرأس ثلاثًا ، باسم الآب والابن والروح القدس[٥٧] . ولقد أدخلت الكنيسة الكاثوليكية بعض التعديلات في طقس العماد ، وأعطت للأسقف المحلي حرية إجراء هذه التعديلات ، خاصة في حالة معمودية عدد كبير من المعمدين .[٥٨]

وكلمة المعمودية أصلاً ، والتي جاءت كفعل حوالي «٧٠» مرة في العهد الجديد (baptizo) وكاسم حوالي «٢٠» مرة (baptizma) ، لا تفيد التغطيس ، بل تفيد الغسل والاغتسال . وهي نفس الكلمة التي جاءت في (مرقس ٧ : ٤) عن غسل الكؤوس والأباريق وفي (لوقا ١١ : ٣٨) « لم يغتسل أولاً قبل الغداء » ، وهذا يشير إلى مجرد رش ماء بكيفية طقسية (انظر أيضًا متى ١٥ : ٢) .

وإن كنا قد درسنا أن الرسول بولس وهو يتحدث عن المعمودية في (١كورنثوس ١٠ : ٢) يعود إلى عبور الشعب القديم في البحر الأحمر ، وإلى اعتمادهم لموسى في السحابة ، فكيف تم هذا بالتغطيس ؟ ، أليس برش المطر أو بسكبه ؟ . وألا نرى أن الذين دفنوا في ماء البحر هم المصريون وحدهم ؟ وأنهم هلكوا ؟[٥٩]

أما قول الرسول « مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضًا معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات » (كولوسي ٢ : ١٢) ، وقوله « فدفنا معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضًا في جدة الحياة » (رومية ٦ : ٤) . فالرسول يقصد ــ كما سبق ودرسنا ــ اشتراك المؤمن المعمَّد في موت وقيامة المسيح ، فالذي مات وقام هو المسيح ، والدفن إشارة إلى كمال موت المسيح ، والمتعمد يتحد بالمسيح فيشترك في عمله المبارك وفي فوائد هذا العمل العظيم ، ويدخل إلى دائرة شعب الرب . وبالتالي فلا داعي لمحاولة « مسرحة » أو « تمثيل » الرموز الكتابية dramataization ، كما يقول Bishop Buchanan ، وإلا كان علينا في العشاء الرباني أن نقوم بتمثيل أحداث الجلجثة .(٦٠)

إن الكنيسة ما دامت تركز في المعنى الشامل للمعمودية ، وما دام الكتاب المقدس لم يحدد في صراحة ووضوح شكلاً معينًا لطريقة المعمودية ، فالكنيسة بالتالي لا تتحدد بشكل معين . بل يجوز أن تمارس المعمودية بالتغطيس ، ويجوز أن تمارسها بسكب الماء على رأس طالب المعمودية لأن السكب بمثابة تغطية الجسد كله ، ويجوز أن تمارس المعمودية بالرش إذا دعت الضرورة لذلك ، فعبور الملاك المهلك عن بيوت شعب الرب ، كان على أساس رش الدم ، في نظام الفصح ، على العتبة العليا والقائمتين ، وفي (حزقيال ٣٦ : ٢٥) يقول النبي « وأرش عليكم ماءً طاهرًا فتطهرون من كل نجاستكم ومن كل أصنامكم أطهركم » . وفي (١بطرس ١ : ٢) « ورش دم يسوع المسيح » .

وإذا عدنا إلى « إقرار الإيمان الإنجيلي » ، والفقرة الخاصة بالمعمودية ، نجده يقدم لنا المفهوم من ناحية ، وطرق المعمودية من ناحية أخرى . تقول هذه الفقرة :

« نؤمن بأن المعمودية بالماء باسم الآب والابن والروح القدس هي الفريضة التي بها يشهر الإنسان عضويته في الكنيسة وفيها الإشارة إلى الاتحاد بالمسيح والتجديد والتطهير بالروح وغفران الخطايا وتعهدنا أن نكون للرب . وأن ممارستها تكون قانونية سواء أجريت بسكب الماء على المعمد أو رشه به أو بتغطيسه فيه . غير أن كيفية ممارستها ليست بالأمر الجوهرى . وأنه يعمد ليس فقط المؤمنون البالغون بل أيضًا أولاد المؤمنين قبل بلوغهم سن التكليف بناء على إيمان الوالدين الذين يمتلكون لأجل أولادهم الفوائد المقدمة في هذه الفريضة ويتعهدون بأن يربوهم في تأديب الرب وإنذاره » (انظر دستور الكنيسة الإنجيلية (طبعة ١٩٨٥) فقرة ٣٠ ، صفحة ٢٩ و ٣٠) .

٢ ــ القائم بالمعمودية

السبب الآخر الذي لأجله يطلب البعض إعادة المعمودية ، هو شخص القائم بالمعمودية ، أو هو ارتباط المعمودية بالكهنوت . ففي نظر الكنيسة الأرثوذكسية مثلاً ، لا بد أن يقوم بالمعمودية « كاهن شرعي » . فلقد جاء أمر الرب للرسل « وعمدوهم » ، ثم لمساعديهم ، ولخلفائهم من بعدهم[٦١] .

وفي مجلة (الكرازة) ، التي تعبر عن صوت الكنيسة الأرثوذكسية ، وفي الأعداد الأخيرة ، في سياق حديث عن المعمودية ، جاءت هذه

العبارات « المعمودية لا بد أن يقوم بها كاهن شرعي ... لذلك نحن لا نقبل أية معمودية لا يقوم بها كاهن ... ولا نقول إننا نعيدها ، إنما نعمد المنضم إلينا بمعمودية على يد كاهن ، تحمل فاعلية روحية لازمة للخلاص ، وبدونها لا يخلص ... مهما كانت المعمودية الأولى على اسم الثالوث القدوس ، ما دام ينقصها ثلاثة أمور هامة ، إذ أنها :

أ ــ ليست على يد كاهن شرعي .
ب ــ ليست سرًا .
جـ ــ ليست لها فاعلية روحية .

والذي يهمنا في هذا المجال هو التعليق على فكرة « الكاهن الشرعي » ، لأننا سبق وأشرنا إلى نظريتنا إلى المعمودية نظرة « الفريضة » أو « السر » ، ولأننا نؤمن بفاعليتها الروحية بالشكل الذي أوضحناه .

أما فكرة الكاهن ، فنحن نتفق أن الرب قال للرسل « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩) ، ولكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس ، نرى أن الرب قدَّم لهم هذه الوصية كممثلين للكنيسة . فإطار المعمودية كما نعلم هو الإطار الجماعي ، أي إطار الكنيسة ، وليس الإطار الفردي .

ودون أن نتعرض للرأي الإنجيلي تفصيليًا في موضوع « الخلافة الرسولية » وهو بحث طويل ليس هنا مجاله ، إلا أننا نستطيع أن نرى في الكتاب المقدس ، أن فيلبس عمد كثيرين من السامريين ، وعمد وزير ملكة الحبشة (أعمال ٨ : ١٢ ــ ٣٩) ، مع أنه لم يكن واحدًا من رسل المسيح ، بل كان فقط كارزًا بالإنجيل (أعمال ٢١ :

٨) ، وواحدًا من الشمامسة السبعة ، الذين أقامهم الرسل للعناية بالأرامل (أعمال ٦ : ٥) .

كما أن حنانيا لم يكن واحدًا من رسل المسيح ، بل كان واحدًا من المؤمنين الحقيقيين ، ومع ذلك عمَّد بولس الرسول نفسه (أعمال ٩ : ١٨) .

والرسول بولس على الرغم من كرازته بالإنجيل في كورنثوس ، لم يعمد فيها إلا عددًا قليلاً من المؤمنين فقد قال « أشكر الله أني لم أعمد أحدًا منكم إلا كريسبس وغايس حتى لا يقول أحد إني عمدت باسمي . وعمدت أيضًا بيت استفانوس . عدا ذلك لست أعلم هل عمدت أحدًا آخر . لأن المسيح لم يرسلني لأعمد بل لأبشر لا بحكمة كلام لئلا يتعطل صليب المسيح » (١كورنثوس ١ : ١٤ — ١٧) .

وفي التاريخ الكنسي نرى أن الشمامسة ، والمؤمنين الحقيقيين ، كانوا هم الذين يعمدون(٦٢) أحيانًا الداخلين إلى المسيحية . وفي كتاب « الدسقولية » أو « تعاليم الرسل » جاءت هذه العبارة « لا نأمر جملة أن لا يعمل أحد من العلمانيين شيئًا من أعمال الكهنوت ، الذي هو القربان والتعميد ووضع اليد لقسمة الكنهة .. » ، ويضيف القمص مرقس داود مترجم هذا الكتاب ، في الحاشية ، تعليقًا على كلمة « لا » التي وردت في أول العبارة أنها « وجدت في كلتا النسختين اللتين نقلنا عنهما كما وجدت أيضًا في النسخة اليونانية ثم يقول « لكن الأرجح أنها زيدت ، فالمعنى لا يحتمل وجودها »(٦٣) .

وفي وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني للكنيسة الكاثوليكية ، والذي سبقت الإشارة إليه ، جاءت هذه العبارة « يجب وضع رتبة مختصرة

يمكن أن يستعملها مدرسو التعليم المسيحي والمؤمنون بصفة عامة ، خاصة في مناطق الإرساليات ، وفي حالة خطر الموت ، عندما يتعذر وجود كاهن أو شماس إنجيلي » . والجدير بالذكر أن هذه العبارة قيلت عند الحديث عن تجديد طقس العماد(٦٤) .

والكتاب المقدس بعهديه يعلمنا أن الله جعل الشعب كله ملوكًا وكهنة له ، ومن هنا نؤمن ككنيسة مشيخية بمبدأ هام في تفكيرنا اللاهوتي هو « كهنوت جميع المؤمنين » أي « كهنوت الكنيسة » . فالعهد القديم يقول « فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب فإن لي كل الأرض وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة هذه هي الكلمات التي تكلم بها نبي إسرائيل » (خروج ١٩ : ٥ و ٦) . وفي نبوة (إشعياء ٦١ : ٦) « وأما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون » . وكذلك يعلم العهد الجديد ، فالرسول بطرس يقول « وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب . الذين قبلاً لم تكونوا شعبًا وأما الآن فأنتم شعب الله الذين كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون » (١بط ٢ : ٩ و ١٠)، وفي سفر الرؤيا « ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكًا وكهنة لله أبيه له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين . آمين » (رؤيا ١ : ٥ و ٦) « وهم يترنمون ترنيمة جديدة قائلين مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذبحت واشتريتنا بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة . وجعلتنا لإلهنا ملوكًا

وكهنة فسنملك على الأرض » (رؤيا ٥ : ٩ و ١٠) .

وقد نادى هانز كونج Hans Kung عالم اللاهوت الكاثوليكي السويسري بهذه الحقيقة ، في كتابه الشهير « الكنيسة » ، بقدر كبير من الدراسة المستفيضة حول كهنوت جميع المؤمنين ، تصل إلى الأربع والعشرين صفحة كاملة (٣٦٣ ـــ ٣٨٧) ، معددًا صور الكهنوت الملوكي لجميع المؤمنين(٦٥) . ويضيف Martin E . Marty على دراسة هانز ، أن رجل الكهنوت ، أو راعي الكنيسة ، أو الخادم المرتسم الذي يقوم بالمعمودية ، هو أصلاً عضو في شعب الرب (Laos - People) ارتسم لهذه الوظيفة ، باختيار الشعب لكي ـــ يمثلهم ولكي يخدمهم .(٦٦)

على هذا الأساس الكتابي والتاريخي واللاهوتي نرى أن الكنيسة مملكة كهنة ، وأن القسيس والراعي والخادم في الكنيسة الإنجيلية ، كما في كل كنيسة للرب ، هو راعي كهنة ، توضع عليه الأيدي لرسامته وتخصيصه للرعاية ، ومن هنا يستمد « شرعيته » ورسميته . فالشرعية هنا ـــ على أساس تعليم العهد الجديد ـــ لا ترتبط بسلسلة خلافة رسولية ، ولا ترتبط بتقليد يستند إلى تاريخ بشري ، بل بالنظام الكنسي الثابت في كلمة الله ، والذي تسير الكنيسة الإنجيلية على منواله .

كما أننا عندما نقارن بين الكهنوت في العهد القديم ، وبين كهنوت السيد المسيح ، ستتضح لنا هذه الحقائق بكل جلاء ، إذ أن العهد الجديد يبين بصراحة أن كل تلك الطقوس كانت رمزًا إلى ذبيحة المسيح التي قدمها كفارة عن خطايا البشر ، وأن كهنوت المسيح

أسمى من كهنوت سبط لاوي ، وأنه بعد ذبيحة المسيح وكفارته لا تبقى حاجة إلى كل نظام الكهنوت ، إذ بطل الرمز ، بتحقيق المرموز إليه . وبكاهننا الأعظم وفيه ندخل إلى قدس الأقداس بقدوم وثقة ، لأنه الطريق والحق والحياة « فإذ لنا أيها الأخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم المسيح طريقًا كرسه لنا حديثًا حيًا بالحجاب أي جسده وكاهن عظيم على بيت الله لنتقدم بقلب صادق فيه يقين الإيمان مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير ومغتسلة أجسادنا بماء نقي (عب ١٠ : ١٩ — ٢٢) . « وأما المسيح وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة فبالمسكن الأعظم والأكمل غير المصنوع بيد أي الذي ليس من هذه الخليقة . وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداء أبديًا لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنجسين يقدس إلى طهارة الجسد فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي » (عب ٩ : ١١ — ١٤) .

على هذا الأساس لم يلقب الذين يخدمون رسالة الإنجيل في العهد الجديد بلقب « كهنة » ، ولم ينسب عمل الكهنة إلى خدام الإنجيل ، فكاهننا العظيم حي في كل حين ليشفع فينا . ولكن عمل مملكة الكهنة ، أي الكنيسة ، هو تقديم الذبائح الروحية المقبولة لدى الله ، وأن يخبروا بفضائل الذي دعاهم من الظلمة إلى النور العجيب (رومية ١٢ : ١ ، عب ١٣ : ١٦ ، ١بطرس ٢ : ٩) . إنهم الأحجار الحية ، والبيت الروحي ، والجنس المختار ، وشعب الاقتناء (أفسس ٢ : ١ — ٥ ، عب ٣ : ٦ ، أفسس ٢ : ٢٢ ، ١ ، ٣ ،

٤ ، ١بط ١ : ١ و ٢ ، أعمال ٢٠ : ٢٨) .

بناء على كل ما سبق تتأكد شرعية القسيس الإنجيلي كراعٍ لشعب الرب . لقد دعى من الله للعمل الذي يقوم به . وقبلته الكنيسة وانتخبته ، وخصصته بوضع الأيدي وبفعل النعمة وبقوة الروح القدس للدور الذي يقوم به . ولذلك فعندما يقوم بالمعمودية باسم الآب والابن والروح القدس ، تتحقق في المعمودية ـــ بحسب معناها وأساسها الذي أوضحناه ـــ كل شروط الشرعية والفاعلية .

فالمعمودية لا تقام باسم طائفة معينة ، أو باسم شخص معين ، بل باسم الثالوث الأقدس . لذلك ما أحرانا أن نصغي لصوت الرسول بولس وهو يقول للكنيسة في كورنثوس « ولكنني أطلب إليكم أيها الأخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تقولوا جميعكم قولاً واحدًا ولا يكون بينكم انشقاقات بل كونوا كاملين في فكر واحد ورأي واحد لأني أخبرت عنكم يا إخوتي من أهل خلوي أن بينكم خصومات . فأنا أعني هذا أن كل واحد منكم يقول أنا لبولس وأنا لأبولس وأنا لصفا وأنا للمسيح . هل انقسم المسيح . ألعل بولس صلب لأجلكم . أم باسم بولس اعتمدتم » (١كورنثوس ١ : ١٠ ـــ ١٣) .

من هنا تتحقق شروط المعمودية ، عند ممارستها في كنيسة المسيح في كل طائفة بلا تمييز ، وتتحقق فيها بالتالي الفاعلية الروحية التي رأيناها في كلمة الرب حول معناها الكبير . إن الشيء الرائع في المعمودية هو المفهوم الذي يشير إليه ، والأبعاد الروحية التي يجريها الله بالروح القدس في حياة المتعمد ، وليس شخص من يقوم بالمعمودية .

ولقد جاءت فقرة في دراسة المعمودية التي أشرنا إليها ، في مجلة

الكرازة ، كإجابة على سؤال : هل تسرى مفاعيل المعمودية ، إذا كان الكاهن الذي يجريها سيء السيرة ؟ أقول جاءت الإجابة مؤكدة في وضوح قاطع « إن النعم التي نأخذها في المعمودية هي من الله ، وليست من الكاهن الذي هو مجرد خادم لله مانحها . هذه النعم تتوقف على صدق مواعيد الله ومواهبه ، ولا تتوقف على سيرة الكاهن .

إن الكاهن مثل ساعي البريد ، يحمل لك خطابًا مفرحًا . وسواء كان هذا الساعي جميل الخلقة أو دميمها ، فالخطاب المفرح هو هو لا يتغير .

أو هو كالزارع الذي يلقي بالبذار في الأرض فتثمر ، سواء كان هذا الزارع بارًا أو مخطئًا . المهم في البذرة وقوة الحياة التي فيها ، وليس في يد الزارع الذي يلقيها .

وأنت قد تشرب الماء في كوب من ذهب أو كوب من نحاس . والماء هو هو بنفس طبيعته لم يتغير بنوع الكأس الذي يقدم لك الماء فيه .

وهنا أقول ، إن كنا نقبل المعمودية حتى وإن كانت على يد كاهن « سيء السيرة » كما يقول السؤال ، في إدراك واضح لمفهوم ومعنى المعمودية ، أليس بالأولى أن نقبلها على يد راعٍ أو خادم أمين للرب في كنيسة الرب يسوع في أي طائفة ؟!!

ثالثًا : معمودية واحدة

ربما يأتي السؤال : ما الخطأ في إعادة المعمودية ؟ . ولقد جاءت الإجابة على هذا السؤال بكل وضوح ، في سياق التعليق والرد على كل سبب من الأسباب التي ذكرناها ، والتي يسوقها طالبو إعادة المعمودية . ولكن الآن أريد أن أؤكد في بساطة ، الإجابة الرئيسية على هذا السؤال وهي : لأن المعمودية ، طبقًا لمعناها ومفهومها الكتابي واللاهوتي ، وأساسها الوحيد وإطارها الكنسي ، لا يمكن أن تعاد .

فكيف تعاد ؟

ــ وهي علامة العهد الذي بين الله وبين شعبه ؟
ــ والاتحاد بالرب في موته وقيامته ؟
ــ والتطعيم فيه وفي جسده ؟
ــ وشارة العضوية في الكنيسة ؟
ــ والدخول في تاريخ الخلاص الإلهي ؟
ــ وبداءة الحياة المسيحية الكبرى في شخص الرب يسوع ؟
ــ وعلامة مبادرة النعمة الإلهية ؟

فكيف تعاد إذن ؟!! ، هل يمكن أن أطلب الجنسية المصرية ، وأنا أصلاً مواطن مصري ؟!! هل يمكن أن أطلب من والدي التبني ؟ وأنا أصلاً ابن له ؟!! هذا مستحيل ، فنحن نحتاج أن نتذكر المعمودية باستمرار وأن ننمو في فهم أبعادها ، لا أن نطلب إعادتها(٦٧) .

والرسول بولس يحسم هذا النقاش حول إعادة المعمودية في حديثه

إلى كنيسة أفسس إذ يقول « فأطلب إليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما يحق للدعوة التي دعيتم بها . بكل تواضع ووداعة وبطول أناة محتملين بعضكم بعضًا في المحبة . مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام . جسد واحد وروح واحد كما دعيتم أيضًا في رجاء دعوتكم الواحد . رب واحد إيمان واحد معمودية واحدة . إله وأب واحد للكل الذى على الكل وبالكل وفي كلكم » (أفسس ٤ : ١ — ٦) .

والرسولان بطرس ويوحنا ، عندما ذهبا إلى السامرة كمرسلَين من قِبَل الرسل الذين في أورشليم ، بعد سماعهم أن السامرة قد قبلت كلمة الله على فم فيلبس ، الذي بشرهم بالأمور المختصة بملكوت الله ، والذي عمدهم باسم يسوع المسيح رجالاً ونساءً . هذان الرسولان عندما ذهبا إلى مؤمني السامرة ، وعلما بأنهم اعتمدوا ، لم يطلبا إعادة معموديتهم ، بل « ... صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس . لأنه لم يكن قد حل بعد على أحد منهم . غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع ... » (أعمال ٨ : ١٤ — ١٦) .

إن المعمودية إذًا لا يمكن أن تتكرر . ولكن بالنسبة للأفراد الذين يطلبون ذلك ، علينا كرعاة وكخدام في كنيسة المسيح ، أولاً أن نرحب بهم وأن نفرح معهم . فالدافع لطلبهم هذا هو إدراكهم لعمل نعمة الله فيهم ، ونتيجة لذلك أتى ببساطة ، وربما عن عدم معرفة ، لكي يعبر عن اختباره وفرحه ، بطلبه إعادة المعمودية . ونحن نحتاج أن نفرح مع الفرحين ، وأن نشجعهم في السير إلى الأمام في الحياة الروحية .

ولكن علينا ثانيًا أن نعلمهم ، وأن نقدم لهم كلمة الله القادرة أن تبنيهم ، وتعطيهم ميراثًا مع المقدسين . وأن نعودهم أن يذكروا معموديتهم ، والنعمة الإلهية التي بادرت وأتت إليهم حتى قبل أن يدركوا أبعادها وفعلها . إن كلمة « اذكر » والتي باليونانية « anamnesis » كلمة كتابية قوية ، والله يدعو شعبه دائمًا أن « يذكر » عمله الفدائي والخلاصي في حياتهم .

فعندما أخرج الله شعبه قديمًا من أرض مصر ، كان يقول لهم دائمًا « أذكر أنك كنت عبدًا في أرض مصر ففداك الرب إلهك . لذلك أنا أوصيك بهذا الأمر اليوم » (تثنية ١٥ : ١٥) . ومرات يحذرهم من نسيان عمله هذا قائلاً : « لئلا إذا أكلت وشبعت وبنيت بيوتًا جيدة وسكنت وكثرت بقرك وغنمك وكثرت لك الفضة والذهب وكثر كل مالك يرتفع قلبك وتنسى الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية » (تثنية ٨ : ١٢ — ١٤) . وهي نفس الكلمة التي جاءت عن عشاء الرب في العهد الجديد « اصنعوا هذا لذكري » (١كورنثوس ١١ : ٢٤) .

هكذا علينا أن نفرح مع هؤلاء ، وأن نعلمهم بعمق وغنى الحقائق الكتابية عن حياتهم في المسيح وفي كنيسته ، وأن نشجعهم أن يذكروا أبعاد معموديتهم كعلامة عهد الله معهم وشارة دخولهم إلى كنيسته ، وأن يتهللوا بمبادرة النعمة الإلهية لهم . ولهم الآن أن يمارسوا إقرارهم العلني في كنيستهم ، بإعلان توبتهم وإيمانهم بالرب يسوع ، وأن يكرسوا حياتهم لخدمته في كنيسته .

رابعًا : مسيرة المحبة والروح المسكونية

إن السؤال الطبيعي الذي يفرض نفسه علينا في ختام الحديث عن إعادة المعمودية هو : كيف نكمل ونمكن مسيرة المحبة ونعمق الروح المسكونية بين كل الكنائس التي تمثل الجسد الكبير الواحد في مصر ؟ .

لق اتجه العالم كله الآن إلى نبذ الصراع ، ورفض الحروب والأيديولوجيات القديمة ، والنزوع نحو الحوار الموضوعي الإيجابي العقلاني ، وحل المشكلات مهما تكن معقدة في مفاوضات ثنائية أو جماعية . وإقامة التجمعات الاقتصادية والسياسية خدمة للمصالح المشتركة ، كما رأينا المجموعة الأوربية ، أو أمريكا وكندا ، أو الاتحاد السوفيتي والصين والكتلة الشرقية عمومًا ، والبلاد الأسيوية واليابان ، ودول الخليج ، ودول المغرب العربي ، ودول مجلس التعاون العربي . والتركيز على التفاهم والمحبة والسلام كتوجه رئيسي لخدمة الإنسان كما تفعل بلادنا الآن .

هذه الروح الجديدة التي تحاول جاهدة أن تغزو العالم ، وتهز المناطق التي كنا لا نحلم أن تهتز ، مثل ما حدث من سياسات الانفتاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني ، وإعادة البناء والمكاشفة التي قادها الزعيم جورباتشوف في روسيا . أقول هذه الروح الجديدة ، ينبغي أن تتميز بها كنيسة الرب يسوع عامة في كل العالم ، وأن تتميز وتتمسك بها الكنائس المسيحية في بلادنا خاصة ، لا بمعنى أن تتخلى الكنائس عن عقائدها ، بل بمعنى أن تتجه في نضوج ، مع تمسكها بعقائدها ، إلى احترام عقائد الآخرين أيضًا .

قبول معمودية الكنائس

ومنذ أعوام قليلة تقريبًا ، أغلقت بعض الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية في العالم كله ملف المعمودية إلى الأبد . بمعنى أن البحث عن صحة المعمودية التي تمارس في هذه الكنائس ، والقبول المتبادل ، صار حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها .

وبالتالي انتقل البحث إلى العشاء الرباني والكهنوت . وكان آخر لقاء في يناير في ليما (بيرو) ١٩٨٢ ، وقد أسفر عن إصدار وثيقة هامة في هذا الشأن لا تزال تدرس رسميًا في كل الكنائس ، وسوف أضع الجزء الخاص بالمعمودية « بيان ليما » ملحقًا لهذه الدراسة ، حتى يتمكن الجميع من دراسته . وكانت لجنة « الإيمان والحياة الكنسية » المعروفة باسم « Faith and order » ، قد سبقت وجمعت كل الوثائق الخاصة بموضوع المعمودية ، وخلاصة الحوار اللاهوتي حول هذا الموضوع في الـ ١٠٠ سنة الأخيرة ، ونشرتها في الدراسات رقم « ٩٠ » وتحت عنوان « القبول المتبادل للمعمودية في الاتفاقات الكنسية » للدكتور نيلز ايرونستورم Nils Erenstorm ، مجلس الكنائس العالمي ، جنيف ١٩٧٨ . وهكذا انتهى الحوار على مستوى العالم كله من بحث هذه النقطة الهامة .

ولقد قدم مرة الدكتور جورج حبيب بباوي ، الذي كان يشغل منصب الأمين التنفيذي لدائرة الدراسات اللاهوتية بمجلس كنائس الشرق الأوسط ، في مجلة الهدى ، مقالاً متعمقًا حول هذا الموضوع ، أنقل هنا بعض الأجزاء الهامة منه لأختم الحديث في هذا المجال ، وفي هذا الموضوع القديم الجديد في نفس الوقت[٦٨] .

موضوع قبول المعمودية ، ليس جديدًا ، ولا أثير بسبب تطور ونمو الحركة المسكونية في العصر الحديث ، ولكنه أثير في القرون الأربعة الأولى وأغلق باب البحث في نهاية القرن الخامس ، بدليل أنه لا يرد بالمرة في قوانين العصور الوسطى ، أي في كافة القوانين الكنسية التي صدرت في الشرق والغرب . وقد طرح الموضوع بقوة وعنف أيضًا في أعقاب حركة الإصلاح في أوربا في القرن السادس عشر .

وطوال القرون الماضية (١٧ ــ ١٩) لم يغلق باب البحث ، وكانت العوامل النفسية والمشاعر الملتهبة هي التي تقود بعض الدراسات اللاهوتية . كما ساهمت أيضًا العلاقات الكنسية في تحسين البحث أو الوصول به إلى الباب المسدود . فالذين يدرسون ويقرأون هم بشر ولو كان للبشر جميعًا قدرة على الوصول إلى أعلى درجة من الموضوعية ، لانتهت مشاكل البشر جميعًا في سرعة خارقة .

وجاء القرن العشرون بثلاثة عوامل أساسية ساهمت في حل المشاكل المتراكمة منذ القرن السادس عشر :

أولاً : ظهور المجلات اللاهوتية التي صدرت عن جامعات كبرى مثل أوكسفورد ، وهارفارد ، وبرنستون ، وباريس ولوفان وغيرها وكانت هذه المجلات هي بداية الحوار اللاهوتي والتاريخي الدقيق ، فساعدت على نضوج الفكر المسيحي وساهمت في الكشف عن الأخطاء التاريخية في الأبحاث القديمة .

ثانيًا : نضج علوم هامة ، وهي الدراسات المتعلقة بالآباء ولا سيما آباء الكنيسة الشرقية ، فحتى نهاية القرن الثامن عشر لم يكن لدى

الباحثين طبعات علمية دقيقة لمؤلفات الآباء باليونانية والقبطية والسريانية والأرمنية . وجاءت طبعات القرن التاسع عشر لتعطي للباحث نصوصًا موثوقًا فيها لا يرقي إليها الشك . كما أدت اكتشافات كثيرة إلى تصحيح طبعات كتب القانون الكنسي واكتشاف القوانين المزورة التي أضيفت في العصر الوسيط . أما في مجال المجامع المسكونية ودراسات التاريخ الكنسي فقد صدرت عدة مجلدات عالمية تضم كل شيء عن هذه المجامع ، ولعل أشهرها على وجه الإطلاق الطبعات التي تعرف باسم كل من « Mansi , Hefele » ، هذا بالإضافة إلى القواميس ودوائر المعارف العالمية .

ثالثًا : وشهدت دور النشر في القرنين التاسع عشر والعشرين أكبر حركة نشر وطبع دراسات كثيرة ، وأدت فلسفة عصر التنوير في القرن الثامن عشر إلى ضرورة اكتشاف الحقائق ، وشهد العالم الحربين العالميتين وكلاهما دمر الكثير ، ولكن بعث في النفوس ضرورة التقارب والحوار وإلقاء السلاح . وشهدت الجامعات الأوروبية حركة تقارب وتمت برامج زيارات وتبادل الأساتذة والطلاب ، شملت الولايات المتحدة ودول العالم الثالث . وأخيرًا جاءت الحركة المسكونية لكي تقطف هذه الثمار .

الموقف العالمي المعاصر :

بالنسبة لكافة الكنائس الأرثوذكسية في العالم كله والتي تنتمي إلى العائلة البيزنطية ، فالموقف الواحد الذي تقبله هذه الكنائس هو :

١ ــ الذين يرغبون في الانضمام إلى الكنائس الأرثوذكسية من الكنائس الكاثوليكية ، يقبلون كما هو بدون معمودية وبدون ميرون إذا

كانوا قد نالو هذين السرين في كنائسهم .

٢ ــ لا يعمد مطلقًا الذين يرغبون في الانضمام إلى الكنائس الأرثوذكسية من الذين هم أعضاء في كنائس إنجيلية لها إيمان صحيح بالثالوث الآب والابن والروح القدس ، ويمارسون المعمودية باسم الثالوث . وتكتفي الكنائس الأرثوذكسية برشمهم بالميرون فقط .

أما موقف الكنيسة الكاثوليكية في العالم كله ومنذ المجمع العالمي المعروف باسم مجمع الفاتيكان الثاني فهو لا يختلف بالمرة عن موقف الكنائس الأرثوذكسية البيزنطية .

وتقبل الكنائس الإنجيلية انضمام أي أعضاء إليها من أي كنيسة مسيحية والموقف الواحد هو :

١ ــ صحة إيمان العضو الذي يطلب الانضمام .
٢ ــ السيرة المسيحية والسلوك الفاضل ، وتعهد هذا العضو بأن يحيا حياة مسيحية طالما أنه نال المعمودية في كنيسته الأصلية التي نشأ فيها .

أما الكنائس الأرثوذكسية من العائلة غيرالخلقيدونية وهي القبطية والسريانية والأرمنية والحبشية والهندية فهي تختلف فيما بينها :

١ ــ تقبل هذه الكنائس جميعًا معمودية الكنائس الكاثوليكية ما عدا الكنيسة القبطية التي كانت تقبل معمودية الكنائس الكاثوليكية حتى عهد صاحب القداسة البابا كيرلس السادس (١٩٧١) ،

ولا تدهن بالميرون الراغبين ــ من الكاثوليك ــ في الانضمام إليها .

٢ ــ تقبل هذه الكنائس جميعًا عدا القبطية والحبشية معمودية الكنائس الإنجيلية التي تؤمن بالثالوث وتمارس المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس ، وتكتفي برشم الميرون فقط . وقد قادت هذه الحركة الكنيسة الأرمنية ثم تبعتها في ذلك الكنيسة السريانية .

موقف الكنيسة الجامعة قبل الانقسام في سنة ٤٥٢م :

ذكرنا أن موضوع المعمودية قديم جديد ، ولذلك كان الموقف في الكنيسة الجامعة في القرون الثلاثة الأولى كما يلي :

أولاً : الإسكندرية وروما قبلتا أي معمودية تمارس خارج الكنيسة الجامعة طالما أنها تمارس باسم الآب والابن والروح القدس وطالما أن الذين تركوا الكنيسة الجامعة ليسوا من أتباع مدارس الغنوسية التي تؤمن بإلهين ، واحد للخير وآخر للشر ، أو من أتباع المونتانية الذين لم يكن لهم إيمان صحيح بالروح القدس .

ثانيًا : اختلف الشهيد كبريانوس مع روما والإسكندرية حول صحة هذه الممارسة واعتبر أن كل معمودية تمارس خارج الكنيسة الجامعة مرفوضة تمامًا مهما كانت صحة إيمان الذين يمارسونها .

لم تقفل الكنيسة الأولى باب البحث بالمرة في هذا الموضوع وأعاد القديس باسيليوس بحث الموضوع في الرسالة رقم ١٨٨ والتي تعرف باسم الرسالة القانونية الأولى ، وأثبت فيها ممارسة روما والأسكندرية

وهي أن كل الراجعين إلى الكنيسة الجامعة والذين نالوا المعمودية خارج الكنيسة الجامعة باسم الآب والابن والروح القدس ، تعتبر معموديتهم صحيحة تمامًا ويقبلون برشم الميرون ، ما عدا الغنوسيين والمونثانيين .

وأخيرًا ظهرت نفس القاعدة في القانونين ٧ و ٨ من قوانين مجمع اللاذقية المسكوني ، ثم القانون السابع من قوانين المجمع المسكوني الثاني ٣٨١ .

القاعدة القديمة الواضحة هي : كل من نال معمودية خارج الكنيسة باسم الآب والابن والروح القدس تعتبر معموديته صحيحة . وقد اعتبرت الكنيسة أن معمودية الأريوسيين صحيحة ولم ترَ إعادة معموديتهم رغم إنكارهم للثالوث واكتفت برشمهم بالميرون .. ألا يدعونا هذا إلى أن نعيد النظر في معمودية الكنائس الكاثوليكية والإنجيلية وهم يؤمنون مثلنا بالثالوث القدوس ؟ . وأخيرًا لقد قبلت الكنائس الأرثوذكسية الأخرى معمودية الكنائس الإنجيلية .. ألا يدعونا هذا إلى أن نعيد النظر فيما نفعله نحن لكي تبقى شركتنا مع إخوتنا من الأرثوذكسين شركة صحيحة تامة في محبة الله ؟!

الفصل الثامن

معمودية الماء ومعمودية الروح

على ضوء كل ما درسناه ، يجب أن نقف في هذا الفصل أمام بعض الأسئلة الهامة :

— ما هي صلة المعمودية بالروح القدس ؟
— هل معمودية الماء ومعمودية الروح معمودية واحدة ؟ أم أن الأولى شيء والثانية شيء آخر ؟
— ما المقصود بعبارة « معمودية الروح القدس » ؟
— وهل معمودية الروح اختبار خاص وبركة ثانية ؟
— وما العلاقة بين المعمودية والملء ؟

صلة المعمودية بالروح القدس

إن صلة المعمودية بالروح القدس صلة حقيقية موجودة في الكنيسة الأولى ، ذُكرت على فم يسوع نفسه ، فلقد أجاب يسوع على نيقوديموس في (يوحنا ٣ :٥ — ٨) قائلاً : « الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله ، المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح . لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق ، الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب هكذا كل من ولد من الروح » .

والرسول بولس يقدم هذه الحقيقة بكل الوضوح في (١ كورنثوس ١٢ : ١٣) « لأننا جميعنا بروح واحد أيضًا اعتمدنا إلى جسد واحد يهودًا كنا أم يونانيين عبيدًا أم أحرارًا وجميعنا سقينا روحًا واحدًا» . ويسميه « روح الموعد القدوس » (أفسس ١ : ١٣) ، « عربون »

(أفسس ١ : ١٤) ، « باكورة » (رومية ٨ : ٢٣) لكي يؤكد للمؤمنين الميراث السماوي الذي لهم من الآب وسوف يستعلن في المستقبل . ويؤكد الرسول بطرس نفس الحقيقة للجماهير الراجعة إلى الرب في يوم الخمسين في (أعمال ٢ : ٣٨) « فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس » .

هذا كله يعنى أنه إذا كانت المعمودية بهذا المفهوم الذي أشرنا إليه ، وأنها ترتبط بالعهد مع الله ، وتستند وتشير إلى عمل الرب يسوع ، وترتبط بغسل الخطايا ، فإنها بالتالي ترتبط بالروح القدس الذي هو مصدر الفاعلية الحقيقية ، فالروح هو الذي يعطي قوة الحياة الجديدة ويسيطر على هذه الحياة . هذا الارتباط ارتباط جوهري لا يكمن فقط في مجموعة من المواهب الروحية التي تعطي للمؤمن ، بل هو ارتباط حياة وارتباط قوة يهبهما الروح للمؤمن .

لكن البعض يخلط بين عمل الروح القدس وبين المعمودية نفسها ، حتى أن بعض المفسرين في سياق حديثهم عن المعمودية ، يورد بعض الفصول الكتابية التي تتحدث عن الروح القدس كختم ، ظانين أن الختم يشير إلى المعمودية مثل (٢كورنثوس ١ : ٢١ و ٢٢) « ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله . الذي ختمنا أيضًا وأعطى عربون الروح في قلوبنا » . ثم (أفسس ١ : ١٣ و ١٤) « الذي فيه أيضًا أنتم إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم الذي فيه أيضًا إذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده » . وبذلك يقولون إن المعمودية هي « الختم »

الذي يضعه السيد على المؤمن .

على أن كثيرين من العلماء لا يذهبون إلى هذا الحد ، إذ أن هذا يضفي عملاً سريًا على المعمودية في حد ذاتها ، وهذا الفكر لا يمكن أن يصدر من الرسول بولس . فالختم والمسحة يشيران في الكنيسة الأولى إلى الروح القدس نفسه الذي يوهب للمؤمن عند المعمودية ، كما يقول الرسول بطرس في يوم الخمسين ، ولكنهما لا يشيران إلى المعمودية .(٦٩)

الاختبار الواحد

لكن الأمر الهام في صلة المعمودية بالروح القدس ، هو النظرة الأشمل إلى الاختبار المسيحي ، أو إلى موضوع الخلاص ومشروع الفداء . فكما أن الخلاص اختبار واحد ، له مراحله المختلفة من تبرير وتقديس وتمجيد ، هكذا نستطيع أن نقول إن الاختبار المسيحي الواحد ، له أوجهه أو أبعاده المتعددة .

فالإيمان والتوبة وغفران الخطايا ، والنبوة ، وعطية الروح القدس ، والانضمام لجسد المسيح .. الخ هذه كلها أبعاد متعددة ، لكنها مرتبطة معًا في إطار الاختبار المسيحي الواحد . وهذه الأبعاد التي ترتبط معًا ، يختبرها كل إنسان في أوقات ومراحل مختلفة من حياته ، وبمستويات مختلفة في النمو فيها . فقد يسبق الإيمان والتوبة المعمودية ، في حالة معمودية البالغين ، أما في حالة معمودية الأطفال فيختبرها الطفل بعد المعمودية في مرحلة ما من حياته .

معمودية واحدة

من هنا ننتهي إلى نتيجة واضحة ، وهي كما أن الاختبار المسيحي ، اختبار واحد بمراحله المختلفة وبأبعاده المتعددة ، هكذا المعمودية التي هي تعبير عن هذا الاختبار المجيد وعلامة له ، هي معمودية واحدة . وهذا ما قصده الرسول بولس في حديثه إلى كنيسة أفسس عندما قال : « مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام جسد واحد وروح واحد كما دعيتم أيضًا في رجاء دعوتكم الواحد رب واحد وإيمان واحد معمودية واحدة إله وأب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم » (أفسس ٤ : ٣ ــ ٦) . إذن معمودية الماء ومعمودية الروح معمودية واحدة .

ولكي تتضح الفكرة أكثر أقول ، بما أن الروح القدس هو شخص الله ذاته فهو يسكن فينا عندما نقبل بالإيمان عمل الله الآب عنا في شخص الرب يسوع . فقبول المسيح في القلب هو قبول الروح القدس في الحياة ، وذلك لأن الولادة الثانية هي من عمل الروح القدس « هكذا كل من ولد من الروح » (يوحنا ٣ : ٨) . وعندما نقبل الروح القدس نبدأ رحلة الحياة في الروح أي الحياة في المسيح (غلاطية ٢ : ٢٠) . ويؤكد الرسول بولس نفس المعنى عندما يقول للمؤمنين في كنيسة رومية « فالذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله . وأما أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكنًا فيكم ولكن إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له » (رومية ٨ : ٨ و ٩) .

هذا هو الاختبار الرئيسي الواحد في حياتنا ، اختبار الحياة في المسيح ،

الاختبار الذي يبدأ لكنه لا ينتهي ، بل يمتد وينمو ويسمو كلما نما المؤمن في علاقته بالرب وتعمق ونضج في خبرته الروحية . هذا الاختبار المبارك ، الذي هو قبول الحياة الأبدية في شخص الرب يسوع بعمل الروح القدس في حياتنا ، يأتي في الكتاب المقدس بمسميات مختلفة وعبارات متعددة لكنها جميعًا تشير إلى نفس المدلول وإلى ذات الاختبار مثل : سكنى الروح ، ختم الروح ، مسحة الروح ، معمودية الروح ، الحياة الجديدة ، الميلاد الثاني ، الحياة في المسيح ، ... الخ وهذا الاختبار الكبير تشير إليه وتعبر عنه معمودية الماء كما درسنا معًا .

إذن معمودية الروح القدس هي عبارة من هذه العبارات المترادفة التي تشير إلى اختبار قبول الرب يسوع ، والاتحاد به بموته وقيامته ، وبالتالي الانضمام والاندماج في جسده في العالم ، وهو اختبار جميع المؤمنين بالرب . ويشرح الرسول هذا المعنى قائلاً « لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد كذلك في المسيح أيضًا » (١كورنثوس ١٢ : ١٣) .[٧٠]

أما الاعتراض الخاص بأعمال ١٩ « فحدث فيما كان أبولس في كورنثوس أن بولس بعدما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى أفسس فإذ وجد تلاميذ قال لهم : هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فقال لهم فبماذا اعتمدتم فقالوا بمعمودية يوحنا فقال بولس إن يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع . فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع . ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس

عليهم فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبأون . وكان جميع الرجال نحو اثنى عشر » (أعمال ١٩ : ١ — ٧) فبمحاولة بسيطة لفهم النص من ناحية ، وربطه بالأعداد السابقة في أعمال (١٨ : ٢٤ — ٢٦) من ناحية أخرى ، يتبين أنهم تلاميذ يوحنا المعمدان ، وأنهم استقوا أفكارهم من أبولس الذي كان « عارفًا بمعمودية يوحنا فقط » وبالتالي فهم ليسوا مسيحيين . وعندما جاء إليهم في أفسس الرسول بولس ، وأخبرهم أن يوحنا عمد بمعمودية التوبة ، قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي المسيح يسوع ، لما سمعوا ذلك اعتمدوا باسم الرب يسوع وهنا اختبروا حلول الروح القدس عليهم . ومن هنا يكون هذا النص في وضوحه وقوته مثبتًا ومؤكدًا للمفهوم الكتابي السليم لمعمودية الروح القدس . « فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس » (أعمال ٢ : ٣٨ و ٣٩) .

هل معمودية الروح اختبار خاص أو بركة ثانية ؟

ما زال البعض مثل الرسوليين والخمسينيين وأتباع الحركة الكاريزماتية يسيء فهم العبارة ، ويقولون إنها اختبار خاص أو « البركة الثانية » بعد التجديد التي يحصل عليها جماعة خاصة من المؤمنين . وفي هذا الاختبار يحصلون على القوة الروحية للحياة والخدمة . يترتب على ذلك أن كل مؤمن لم يحصل على هذا الاختبار الخاص هو مؤمن من الطبقة الثانية .

هذا المفهوم لا نجد له السند الكتابي الذي يدعمه . بل إن الكتاب المقدس يؤكد أن هذا التعبير « معمودية الروح القدس » الذي لم يظهر

في العهد الجديد بتاتًا كإسم ، ولكنه يظهر في بعض المواقع كفعل « يعمدكم » مثل (متى ٣ : ١١ ، مرقس ١ : ٨ ، لوقا ٣ : ١٦ ، يوحنا ١ : ٣٣ ، أعمال ١ : ٥ ، ١١ : ١٦) . أقول إن الكتاب المقدس يؤكد أن معمودية الروح القدس هي اختبار جميع المسيحيين المؤمنين .

وفي كل الشواهد السابقة التي ورد فيها هذا الفعل نجد مقارنة بين معمودية يوحنا ومعمودية أو تعميد المسيح . يوحنا يعمد بالماء والمسيح يعمد بالروح القدس . معمودية يوحنا للتوبة للإعداد لظهور ملكوت السموات ومجيء المسيا (ملاخي ٣ : ١ ، ٤ : ٢٥ ، متى ٣ : ٢ ـــ ١٣ ، ١٧ : ١٠ ، لوقا ١ : ١٦ ـــ ١٩) ومعمودية المسيح تعني مجيء المسيا وفتح باب الملكوت للجميع لأن الوعد قد تم . يوحنا عمد للإعداد للملكوت ويسوع يعمد لدخول الملكوت . إذن معمودية الروح القدس هي دخول كل من يؤمن بالرب يسوع إلى ملكوت الله بالروح القدس .

حادثتان

وفي سفر الأعمال توجد حادثتان ارتبطت بهما شهادة يوحنا المعمدان للمسيح بأنه « يعمد بالروح القدس » الأولى حادثة يوم الخمسين إذ يقول البشير لوقا : « وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني . لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس ليس بعد هذه الأيام بكثير » (أعمال ١ : ٤ و ٥) . ومن المعروف أن كل من حل عليهم الروح القدس في ذلك اليوم كانوا من اليهود . والثانية

هي حلول الروح القدس على كرنيليوس وبيته كممثلين للأمم الذين يؤمنون بالمسيح . وهذا ما يؤكده الرسول بطرس في دفاعه أمام كنيسة أورشليم « فلما ابتدأت أتكلم حل الروح القدس عليهم كما علينا أيضًا في البداءة . فتذكرت كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمد بماء أما أنتم فستعمدون بالروح القدس . فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضًا بالسوية مؤمنين بالرب يسوع المسيح فمن أنا . أقادر أن أمنع الله . فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجدون الله قائلين إذًا أعطى الله الأمم أيضًا التوبة للحياة » (أعمال ١١ : ١٥ ١٨) . في هاتين الحادثتين يرتبط قبول اليهود والأمم للمسيح ربًا ومسيحًا ودخولهم في دائرة عمله الفدائي بعبارة « تتعمدون بالروح القدس » . ولم ترد في العهد الجديد أي حادثة أخرى ترتبط بهذه العبارة سواء أكانت لأفراد أم لجماعات . كما أن الرسول بطرس عندما يربط الحادثتين معًا في (أعمال ١١ : ١٧) فإنه لا يقصد أفرادًا بل اليهود والأمم عامة كجناحين للكنيسة المسيحية . وقد حدث هذا لكل جناح منهم مرة واحدة ولم يتكرر ذلك مرة أخرى . إنها حادثة تاريخية ولا حاجة لتكرارها لأن الباب قد انفتح ولم ولن يغلق مرة أخرى .

كما أن الأمر في الحادثتين لم يحتج إلى وسيط لسكب الروح القدس كما حدث في قصة السامرة وأفسس بل كان الانسكاب تلقائيًا وذلك يرمز إلى أن المسيح نفسه هو الذي يعمد بالروح القدس .

من كل ما سبق نتأكد من أن مفهوم « معمودية الروح القدس » كاختبار فردي يناله المؤمن بعد اختبار التجديد لا أساس له في الكتاب المقدس الذي يشهد بكل قوة أنه لا توجد إلا معمودية واحدة

(أفسس ٤ : ٥ ، غلاطية ٤ : ٢٧ و ٢٨) . وهي المعمودية التي فيها نموت مع المسيح لنحيا معه قيامته في جدة الحياة (رومية ٦ : ٣ ــ ٨) .

أما الاعتراض المبني على قول الرسول « لذلك أعرفكم أن ليس أحد وهو يتكلم بروح الله يقول أناثيما . وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس » (١كورنثوس ١٢ : ٣) . فهذا أمر يختلف عن التعميد بالروح القدس . إن الرسول في هذه الآية يظهر صلة الروح القدس بالمعمودية والعشاء الرباني أي غرسنا في جسد المسيح (الكنيسة) بالمعمودية ، ثم تتجدد شركتنا بالمسيح وتتعمق بواسطة العشاء الرباني . هذا يختلف اختلافًا واضحًا عن تعميد المسيح لليهود والأمم مرة واحدة وفتح باب الملكوت لهم ، وعلى هذا الأساس يمكنهم أن يأخذوا موهبة الروح القدس.(أعمال ٢ : ٣٨) .

المعمودية والملء

إذا كان الروح القدس ــ كما درسنا معًا فيما تقدم ــ هو شخص الله ، وأنه يسكن في المؤمنين عند قبولهم شخص الرب يسوع في حياتهم ، إذ « يعمدوا » بالروح القدس ــ روح المسيح ــ فينضموا ويغرسوا في جسده المبارك . إذًا يكون الملء بالروح القدس هو الامتلاء من الله الساكن فينا . وهو سيادة المسيح على حياة المؤمنين كسيد وملك في حياة الكنيسة ، وأن يكون هو متقدمًا في كل شيء .

فأحيانًا يتصور البعض أن الملء بالروح هو الامتلاء « بشيء من

خارجنا » علينا أن نطلبه ، وأن الإنسان « إناء » يصب فيه الروح القدس ، وأن الملء « درجة » يصل إليها البعض دون البعض الآخر في الجسد الواحد ، وأنه « اختبار » يكاد يكون مستقلاً عن عمل الله السابق في حياة الفرد أو الكنيسة ، وبالتالي لا بد له من « طقوس » خاصة للحصول عليه ... إلى آخر هذ التداعيات التي اندفع إليها وفيها بعض الأفراد أو الاجتماعات أو القيادات .

الملء وتدفق النبع الداخلي

وإذا عدنا إلى البناء الفكري الذي نسير فيه ، وأن الروح القدس هو شخص الله الذي يسكن في « داخلنا » الآن ، يكون الملء بالروح القدس هو تدفق هذا النبع الداخلي ليشمل كل الحياة ويسيطر على كل جوانبها ، في إطار مشروع الفداء العظيم . فإذا كان الميلاد بالروح هو بدء وقبول الحياة ـــ حياة المسيح ـــ فينا ، فالملء بالروح هو سريان هذه الحياة فينا باستمرار فتنطبع وتظهر صورة المسيح ، صورة الله ، في حياتنا . وهنا نسلك في الروح أو « في المسيح » من خلال النمو والنضوج في ثمر الروح في حياة الطاعة والإيمان والقداسة ، حياة المحبة . فالملء إذن هو قوة حياة الله في حياتنا كل يوم ، التي تدفعنا وتشجعنا لنواصل رحلة الإيمان إلى كمالها في إطار مشروع الله الواحد والكامل .

وهنا يكون الملء بالروح القدس هو الامتلاء بالمسيح الساكن فينا أو الامتلاء في المسيح أو بعبارة أخرى امتلاك وسيادة المسيح على حياتنا .(٧١)

الملء وعمل الله الكامل

كما أن الملء بالروح هو جزء أصيل من عمل الله الكامل في المسيح لأجل خلاص الإنسان ، هذا المشروع الكبير أو خطة الفداء المباركة التي تشمل كل حياة المؤمن والكنيسة من أولها إلى نهايتها في المجد . ولذلك يقول الرسول بولس للمؤمنين في كولوسي « وأنتم مملوؤن فيه الذي هو رأس كل رياسة وسلطان » (كو ٢ : ١٠) . وفي ذات المعنى يقول الرسول للكنيسة في أفسس « الذي فيه أيضًا أنتم إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم الذي فيه أيضًا إذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده » (أف ١ : ١٣ و ١٤) . ثم يصلي من أجلهم فيقول « كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته » (أف ١ : ١٧ ـ ١٩) .

إن المشكلة أن البعض يجزيء ويفرق ما جمعه الله في المسيح فيفصلون الملء عن مراحل حياة الإيمان الأخرى السابقة واللاحقة في حياة المؤمن . فعمل الله الكامل في المسيح وحدة واحدة متكاملة من تجسد وموت وقيامة وصعود وحلول الروح القدس ومجيء المسيح ثانية ، واختبار الكنيسة لهذا العمل وحدة واحدة متكاملة غير مجزأة أو ممزقة . وداخل هذه الوحدة الكاملة التي هي عبارة عن دائرة متكاملة تزداد عمقًا في حياتنا كل يوم وليست خطًا مستقيمًا مجزأ ، نختبر بالروح القدس غنى التنوع والتدرج في مراحل النمو المختلفة .

وإن كان الرب يسوع هو المخلص وهو السيد فينبغي أن ندرك أننا عندما نقبله في حياتنا فنحن نقبله كما هو مخلصًا وسيدًا معًا . وهكذا أنمو في النضوج فيه كل يوم لأختبر هذه الحقيقة ، حقيقة وسيادته على حياتنا والامتلاء به بالروح القدس .

الملء وغنى المسيح

كما يتصور البعض أن الملء بالروح يمد المؤمن باختبارات أغنى من اختبار مجيء المسيح إلينا وسكناه فينا ، ومن مجيئنا إلى المسيح والحياة فيه ، أي اختبارات أغنى من التي في المسيح . لكن الكلمة المقدسة تعلمنا أن الروح القدس ينير أذهاننا لنكتشف ونختبر كل البركات والوعود المباركة التي لنا في المسيح وفي غناه الذي لا يستقصى . وهذا هو نفس ما تعرضت له كنيسة كولوسي وهدد حياتها ، ولذلك يعلمهم الرسول بقوة عن هذا السر المجيد وعن غنى مجده ، هذا السر الذي هو « المسيح فيكم رجاء المجد » فيقول « الذين أراد الله أن يعرفهم ما هو غنى مجد هذا السر في الأمم الذي هو المسيح فيكم رجاء المجد الذي ننادي به منذرين كل إنسان ومعلمين كل إنسان بكل حكمة لكي نحضر كل إنسان كاملاً في المسيح يسوع » (كو ١ : ٢٧ و ٢٨) . ويعلم الرسول أن المسيح فينا هو كل شيء وهو أعظم شيء ولا يوجد ما هو أعظم منه نتطلع إليه . والروح القدس في ملئه يشهد للمسيح في غناه في الكلمة المقدسة وفي حياة المؤمنين حتى يصبح كل واحد في الكنيسة « كاملاً » أي « ناضجًا » في المسيح يسوع . ولذلك يصلي الرسول لأجل المؤمنين في أفسس قائلاً « لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان

الباطن ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله » (أف ٣ : ١٦ — ١٩) .

الملء كطريق طبيعي وحالة مستمرة

بناء على ما سبق يكون الملء بالروح طريقًا طبيعيًا ، لكل مؤمن في كنيسة الرب يسوع وليس ترفًا روحيًا أو استحسانًا بشريًا ، ولذلك يأتي الفعل في أفسس للجميع ، لكل الكنيسة ، وفي صيغة الأمر « ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة بل امتلئوا بالروح » (أف ٥ : ١٨) . وهو فعل مضارع مستمر يفيد بأن الملء بالروح ليس حالة جامدة ، بل حالة مستمرة نامية متكررة في كل مراحل النمو الروحي . ويتأكد هذا في سفر الأعمال إذ يتكرر الملء في حياة الفرد أو الجماعة كما حدث مع بطرس (أع ٢ ، ٤ : ٤ ، ٨ : ٤ ، ٤ : ٣١) وفي كل مرة كان يشهد للمسيح بقوة ، أو مع الرسول بولس وعليم الساحر (أع ١٣ : ٨) للعقاب والدينونة ، أو بخدمة هامة في الكنيسة كالشموسية (أع ٦ : ٥ ، ٧ : ٥٥) ، وكذلك مع برنابا (أع ١١ : ٢٤) . فالروح القدس هو قوة في حياة الكنيسة وقيادة لها ، للسلوك والخدمة ولمواجهة المهمات الكبرى .

الطريق إلى الملء

هنا يكون الطريق إلى الملء بالروح هو الاقتراب الدائم والمستمر للرب يسوع ، والتكريس الدائم له . وقد أعلن الرب هذا بنفسه في

(يوحنا ٧ : ٣٧ ـــ ٣٩) عندما وقف في اليوم الأخير العظيم من عيد المظال ونادى قائلاً « إن عطش أحد فليقبل إلّي ويشرب ، من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي » . ثم يضيف يوحنا البشير معلقًا وشارحًا . قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه ، لأن الروح القدس لم يكن قد أعطى بعد ، لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد » . إذن الطريق إلى اختبار الملء الفياض الدافق هو أن نُقبل إلى يسوع ونشرب وذلك بالإيمان به ، فالإيمان به يعني أن تقبله وتقبل إليه ، والامتلاء به وبنبعه الفياض وبأنهار مائه الحي معناه أن تقبل إليه وتشرب منه وتخضع له باستمرار . فهذه الأفعال في الأصل في زمن المضارع وهي أن نقبل إلى يسوع باستمرار ، وأن نجوع ونعطش إليه دائمًا ، وبالتالي نشرب ونهل منه على الدوام . إذن الطريق هو الشركة الدائمة العميقة النامية مع الرب يسوع ، والتكريس المستمر بالإيمان به وفيه وحياة التوبة والطاعة كل الطريق . وهكذا إذ نشرب نتحول إلى نبع مياه ، وكما يقول وليم تمبل « حيثما وجد الروح فإنه يتدفق دائمًا ، وحيث لا يتدفق فهو ليس هناك » .

لا تحزنوا الروح

ليس الطريق إلى الملء إذن أن نقف ونطلب كأننا منتظرون شيئًا من خارجنا ، ولا عن طريق (طقوس) خاصة ، ولا عن طريق أناس أو أشخاص معينين ، بل بالاقتراب الدائم إلى المسيح ، والشرب الدائم من نبعه ، والانفتاح المستمر على روحه الساكن فينا .

فالمشكلة ليست في الرب يسوع حتى نصارع معه ليملأنا ، لأن الملء

هو مشيئته الصالحة لكل أبنائه ، بل المشكلة فينا نحن حين نبتعد عنه ولا ننفتح على روحه ولا نحيا في الشركة الدائمة معه . ولذلك نجد أن الفعل « امتلئوا » ترجمته « دعوا الروح يملأكم » . إننا يمكن أن نعطل عمل الروح في حياتنا ، وأن نقاومه ونحزنه ونطفئه بحياة الخطية والسلوك الجسدي ، والحياة غير المنضبطة وغير المدققة . وعلى هذا تكون دلالة الملء بالروح القدس دلالة أخلاقية سلوكية ودلالة عقلية فكرية . ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح من خلال المقارنة الشعرية التي قصدها الرسول عندما قال « ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة ، بل امتلئوا بالروح » . فكلمة « خلاعة » تصف حرفيًا الحالة التي يفقد فيها الشخص القدرة على ضبط النفس والتحكم فيها (تيطس ١ : ٦ ، ١بط ٤ : ٤) وبالتالي يسلك السلوك غير المقدس ، أما الملء بالروح القدس فهو الذي من بين ثماره « التعفف » (غلاطية ٥ : ٢٣) أي ضبط النفس ، الذي يظهر في العلاقة العقلية الواعية المنضبطة الصحيحة مع الله ومع الآخرين ، وبالتالي في أسلوب الحياة الناضج في ثمر الروح . وهنا يكون « الملء بالروح » أو كما تترجم « الملء في الروح » هو الجو الذي نحيا فيه دائمًا في نمو متصل . وإذ عدنا إلى صلاة الرسول في (أفسس ١ : ١٧ — ١٩) لرأينا مراحل هذا النمو المتصل وهي : الاستنارة ، والمعرفة ، والإيمان ، والاختبار . والعلاقة بين هذه المراحل المتصلة الأطراف والتقدم هي أننا بالاستنارة نعرف ، وبالإيمان نستمتع بما نعرف أي نختبر ما نعرف . فاختبارات الإيمان تتوقف إلى حد بعيد على إدراك أذهاننا . وعليه فكلما ازدادت معرفتنا ، ازدادت سعتنا الروحية وازدادت مسئوليتنا نحو نصيبنا وميراثنا الغني في المسيح يسوع ربنا .

دعوة مثلثة

وعندما يطلب الرسول « ولا تحزنوا روح الله القدوس الذي به ختمتم ليوم الفداء » (أف ٤ : ٣٠) ، يريد أن يقول إن الروح القدس هو روح الحق ، فلا نحزنه بعدم الفهم الصحيح ، والسطحية التي تعصف بنا في طريق كل ريح تعليم ، في وقت كثر فيه عدد المعلمين بين الشباب والكبار ، وقلّ فيه التعليم الكتابي الصحيح في شموله وملئه .

كما يريد الرسول أن يقول إن الروح هو روح الله القدوس ، فلا نحزنه بحياة الخطية ، وبالضمير المتعثر ، بل نحيا حياة القداسة والنقاوة التي لنا في المسيح وسط كل صراعات الحياة في الجسد . فنحن أبناء الآب القدوس ، والحياة في المسيح هي حياة القداسة .

وأخيرًا يريد الرسول أن يقول إن الروح القدس هو روح الإله الواحد ، ونحن نحزنه بالانقسام وبالعمل على تمزيق جسد الرب . إن روح الله يوحد ويجمع ولا يفرق ويشتت . .

إذن يقدم الرسول دعوة مثلثة :

دعوة للدراسة والعمق في التعليم .
دعوة للقداسة والنقاوة في السلوك .
ودعوة للوحدة والاندماج في الجسد ، وفي الكنيسة .

والملء بالروح القدس بهذا المعنى هو أن تسكن الكلمة بغنى في قلوبنا ، وأن نسعى لحياة القداسة ، وأن نعمل على وحدة الكنيسة فنحفظ وحدانية الروح برباط السلام .

الفصل التاسع

المعمودية ونظام الممارسة

نظام ممارسة الفريضة

من الملاحظ أن نظام ممارسة الفرائض المقدسة ، كالمعمودية والعشاء الرباني ، في العبادة في معظم كنائسنا ، لا يعبر أحيانًا بالقدر الكافي ، عن فكرنا الكتابي واللاهوتي ككنيسة مشيخية ، من ناحية مفهوم ومعنى وموقع هذه الفرائض المقدسة في إيماننا المسيحي .

فإن كانت العبادة المسيحية الصحيحة هي الخيط الذي يربط بين العقيدة والسلوك ، بين الإيمان والحياة ، بين اللاهوت والأخلاق ، بين الفكر والعمل ، فهي أيضًا ، وخاصة عند ممارسة الفرائض المقدسة ، تتضمن امتزاجًا لفكر ننطق به ، ولعمل نقوم به هو الفرائض .

الكلمة والفرائض

في العبادة ، وعند ممارسة الفرائض ، يتكلم الله إلينا من خلال الكلمة المقروءة والمشروحة ومن خلال الفرائض المرئية والملموسة . وفي العبادة ، في الكلمة والفريضة ، يعلن الله لنا ما عمله ليحقق ما تكلم به . كلاهما إذن ، الكلمة المقروءة والمشروحة ، والفريضة المرئية والملموسة ، كلمة الله المعلنة وعمل الله المعلن معًا ، إنهما « كلمة ــ عمل الله » .

وربما يفسر هذا ما نادى به جون كلفن ، عندما أراد أن يربط دائمًا ــ في العبادة ــ بين قراءة الكتاب المقدس والوعظ ، وبين ممارسة الفرائض المقدسة ، إذ أنهما وجهان لعملة واحدة هي كلمة الله ، أو كلمة ــ عمل الله المعلنة للشعب . هذا ما نراه بوضوح في قصة تلميذي عمواس في إنجيل لوقا ٢٤ : ١٣ ــ ٣٥ ، حيث

نرى الربط بين عظة المسيح لهما ، مبتدئًا من موسى ومن جميع الأنبياء ، وبين كسر الخبز ، حيث نجد اكتمال الإعلان والمعرفة ، « ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب . ثم اقتربوا إلى القرية التي كانا منطلقين إليها وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد . فألزماه قائلين امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار ، فدخل ليمكث معهما . فلما اتّكأ معهما أخذ خبزًا وبارك وكسّر وناولهما . فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما » (لوقا ٢٤ : ٢٧ — ٣١) .

وفي سفر الأعمال يقدم لنا البشير لوقا نفس هذا الربط في حياة الكنيسة الأولى بين التعليم وممارسة الفريضة عندما يقول « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات » (أعمال ٢ : ٤٢) .

وفي الرسائل في تعليق الرسول بولس حول ما يجرى في كنيسة كورنثوس ، وتعليمه عن العشاء الرباني ، يربط أيضًا بين ممارسة الفريضة وبين الوعظ والإعلان والإخبار عن موت الرب إلى أن يجيء « فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم من هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء » (١كورنثوس ١١ : ٢٦) .

مراجعة نظام الممارسة

هذا الفكر يدعونا جميعًا ، ليس فقط إلى مراجعة توقيت ممارسة الفرائض في كنائسنا ، والتي أصبحت تمارس في فترات متباعدة ، تقترب من الشهر في بعض الكنائس ، وتصل إلى الشهور الطويلة

في بعض الكنائس الأخرى خاصة في الريف . أقول ، ربما يدعونا هذا الفكر ليس فقط إلى مراجعة التوقيت ، بل إلى مراجعة نظام الممارسة نفسه ، حتى لا نفرِّق بين ما جمعه الله من ناحية ، وحتى تعبر الممارسة عن فكرنا وإيماننا من الناحية الأخرى .

وهكذا نحتاج عند ممارسة الفرائض إلى مراجعة الجوانب الهامة مثل الوحدة المهدفة ، والأداء المعبر ، والإعداد الجيد .

وأقصد بالوحدة المهدفة ، أن تكون الفريضة بإعلانها عن عمل الرب يسوع لأجلنا ، هي مركز وهدف اتجاه العبادة كلها . فأحيانًا تكون القراءة الكتابية والعظة والترنيم والصلوات في اتجاه ، ثم بعد أن ينتهي كل هذا تبدأ ممارسة الفريضة ، وكأنها إضافة هامشية جدًا ، ليست من نسيج العبادة . إن كل فقرات العبادة يجب أن تنسجم وتتجاوب مع الفريضة ومعناها ، وتعبر وتفسر هذا المعنى ، وتؤدي وتعدّ الشعب إلى الممارسة الواعية الحية .

وثانيًا يجب على الراعي أو الخادم الذي يقود العبادة وممارسة الفريضة ، أن يكون أداؤه معبرًا عن عمل المسيح العظيم ، وعن غنى هذه الممارسة التي تعبر عن هذا العمل في حياة الكنيسة . يجب أن يكون صوته ، وإشارات يديه ، وتعبير جسده ، وتوزيع تركيز عينيه ، في كل فقرات العبادة بتفصيلاتها ، منسجمًا ومعبرًا في وضوح وقوة وعمق ، مع كل ما ينطق به أو يقوم بعمله .

أما الجانب الثالث والأخير فهو الإعداد . والإعداد يجب أن يكون جيدًا ومتجددًا دائمًا . يجب أن يكون جيدًا من حيث الاستعداد

الدقيق لكل ما يقال ويحدث أثناء العبادة عامة ، وعند ممارسة الفريضة خاصة . الاستعداد المدروس لوقت ومضمون كل فقرة .

الاستعداد الجيد والمدروس للدعوة للعبادة ، للصلاة التي ترفع ، لترانيم فريق الترنيم ، للترانيم الجمهورية مع الشعب ، للنصوص الكتابية سواء في عناية الاختيار أو في القراءة الصحيحة المعبرة ، للعظة في مادتها ورسالتها ووقتها ، لفترة الصلوات ، لعملية الممارسة للفريضة في كل أجزائها بالقول أو بالفعل ... الخ .

هذا هو الاستعداد الجيد الذي لا يعطي مكانًا للإرتباك في أي فقرة أو جزء ، ولا يعطي مجالاً للتطويل الذي يذهب بحيوية وبهجة وفاعلية العبادة والممارسة ، كما يُحدّ من الاستعجال الذي يُبطل العمل ويُعيق التمتع والتفاعل معًا.

هذا الإعداد الجيد يقود حتمًا إلى التجديد المستمر بين الحين والآخر ، في طريقة العبادة ونظام الممارسة . وهذا الإعداد المتجدد للفريضة التي هي ذروة العبادة المسيحية ، يقود بالتالي إلى عمق التأمل في عمل الرب ، وعمق التعبد والخشوع قدامه ، والخضوع والتسليم له .

نماذج لنظام الممارسة

وهكذا يمكن عمل بعض النماذج المختلفة لنظام ممارسة الفريضة . حتى يمكن استخدام أكثر من نموذج للفريضة الواحدة .

وكتطبيق عملي بالنسبة لفريضة المعمودية ، هناك النموذج الأول

الموجود في كتاب نظام العبادة في المواد من ٩٤ ـــ ١٠٢ . وهناك نموذج آخر من النماذج التي أعدّها الدكتور القس فايز فارس ، كنظام للممارسة في الكنيسة الإنجيلية الثانية بالمنيا ، وهو ـــ كما أعلم ـــ دائم الإعداد والابتكار والخلق لنظام ممارسة الفرائض المقدسة ، حتى أنه يعد الآن كتابًا يضم كل هذه النماذج معًا ، ليصبح بركة للكنائس والخدام في تعميق وتجديد نظام الممارسة . وقد استأذنت القس فايز فارس ووافق مشكورًا ، وأرسل لي نموذجًا لنظام ممارسة فريضة المعمودية ليكون ضمن هذا الكتاب . وأنا أقدّم للفائدة النموذجين معًا .

النموذج الأول
المعمودية

القائم بالممارسة :

المعمودية فريضة لكنيسة العهد الجديد ولذلك لا يجوز أن يقوم بممارستها إلا القسيس المرتسم .

المعمدون :

المعمودية ختم للعهد الجديد . ولهذا فهي تمارس للذين يعترفون بإيمانهم اعترافًا موثوقًا به ولأولادهم .

الكيفية :

تمارس المعمودية باستعمال الماء برشه على المعمد أو بسكبه عليه أو بتغطيسه فيه .

الالتزامات :

تفرض المعمودية التزامات مقدسة من جهة الوالدين ومن جهة الذي تمارس لهم ويجب أن يعترف بهذه الالتزامات بواسطة الإجابة بالإيجاب على الأسئلة المذكورة بعد .

أسئلة العهد في معمودية الأطفال :

الوالدون أو أولياء الأمور الذين يقدمون أولادهم عليهم أن يجيبوا على الأسئلة التالية :

١ ــ هل تجدد ما اعترفت به يوم قبولك في عضوية الكنيسة ؟

٢ ــ هل تعد أن تربي أولادك تربية مسيحية في تأديب الرب وإنذاره ؟ وأن تعلمهم الحقائق الإنجيلية عن الخلاص ؟ وتصلي معهم ولأجلهم ؟ وتعبد الله في عائلتك بمواظبة وانتظام ؟ وأن تكون أمامهم مثالاً للتقوى في القول والسلوك وأن تستعمل كل الوسائط المعينة لخلاصهم ؟

أسئلة العهد في معمودية البالغين :

البالغون غير المعمدين ، بعد ما يقبلهم المجلس ، يعمدون بناء على الاعتراف الجهاري بإيمانهم بالمسيح وطاعتهم له ويمكن استعمال صورة السؤال الخاص بالقبول العلني لأعضاء الكنيسة وهو :

هل تعترف أمام هذه الكنيسة بإيمانك بالمسيح وعزمك على أن تعيش عيشةً مسيحيةً ؟ وتجاهر بتعهدك أن تربي روح الشركة المسيحية والمحبة الأخوية ؟ وأن تلتمس خير هذه الكنيسة ما دمت عضوًا فيها ؟

عماد أبناء المسيحيين المنتسبين إلى الكنيسة :

يجوز عمادهم وفي هذه الحالة يستبدل السؤال الأول من العهد بالسؤال التالي :

هل تعترف أمام هذه الكنيسة بإيمانك بالمسيح ، وعزمك على أن تعيش عيشة مسيحية ، وتجاهر بتعهدك أن تربي روح الشركة المسيحية والمحبة الأخوية ؟

ترتيب الخدمة :

بعد شرح الفريضة شرحًا مناسبًا وبعد أن يتعهد الوالدون ، تقدم صلاة يطلب فيها حضور الله في ممارسة الفريضة . ثم ينطق القسيس باسم الطفل ويرش الماء على رأسه قائلاً « أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس ، آمين » . ثم يختم الخدمة بالصلاة .

ويتبع ذات الترتيب في معمودية البالغين .

مكان الممارسة :

يجب أن تمارس المعمودية في الكنيسة أو في مكان اجتماع مقرر ، مقترنة بخدمة جمهورية . وإذا مورست في أي مكان آخر يجب أنيكون ذلك بمصادقة المجلس ولأسباب قهرية جدًا ، وأن تقترن بممارسات دينية .

النموذج الثاني
نظام ممارسة فريضة المعمودية

بعد إعلان الخادم عن ممارسة فريضة المعمودية يقرأ بعض الفصول

الكتابية المناسبة مثل (متى ١٨ : ١ — ٦) (متى ١٩ : ١٣ — ١٥) (أعمال ٢ : ٣٨ و ٣٩) ثم يقدم شرحًا مناسبًا عن المعمودية يكون مضمونه الآتي ، ويمكنه الإطالة أو الإيجاز حسب ظروف الممارسة :

+ **معنى السر** : فريضة ظاهرية تدل علامات حسية فيها على بركة داخلية .

+ **المعمودية** : فريضة وضع فيها الغَسْل بالماء باسم الآب والابن والروح القدس علامة وختمًا لتطعيمنا في المسيح ونوالنا بركات عهد النعمة ومعاهدتنا على أن نكون للرب .

+ **شرح فاعلية المعمودية** : إنها ليست وسيلة للتجديد ولكنها إعلان عن حقيقة داخلية . عندما يقبل الإنسان المسيح ويكون من ديانة أخرى يؤمن أولاً ثم يعتمد وهذا ما كان يتم في عهد الرسل . كان الرسل يعمدون الشخص المؤمن وأهل بيته ، وذلك باعتبار أن الروح القدس يعمل في المؤمنين وأولادهم حسب موعد الروح القدس « لكم ولأولادكم » . المعمودية وحلولها مكان الختان في العهد القديم الذي كان علامة ظاهرية لوجود الطفل ضمن شعب الله . فكثيرون ممن اعتمدوا طقسيًا لم يكونوا مؤمنين حقيقيين مثل سيمون الساحر .

+ **وسيلة المعمودية** : الرش أو السكب أو التغطيس وشرح عدم ضرورة التغطيس (انظر أصول الإيمان وتميزه) .

+ **بيان أن المعمودية لا تتكرر** : ثم يطلب من الآباء والأمهات التقدم إلى الأمام بجوار الأم ومعهما الطفل أو الأطفال .

يمكن أن ترنم الجماعة كُلُّها ترنيمة مناسبة مثل :
رقم ١٥١ الرب أعطى شعبه ــ فعلموا أولادكم شريعة الإله .
أو رقم ٤٢٥ يا ربنا طفل أتاك .
أو رقم ٤٢٦ (في حالة معمودية البالغين) .

يقف الآباء والأمهات للإجابة على الأسئلة الآتية وهي بصيغة المفرد لأنها عهد شخصي على كل فرد .

١ ــ هل تتخذ الله إلهًا لك ولنسلك في عهد النعمة ؟

٢ ــ هل تجدد إقرارك الإنجيلي الذي اعترفت به يوم قبولك لعضوية الكنيسة الإنجيلية ؟ (أو في حالة وجود أفراد مترددين أو غير أعضاء) هل تعترف أمام هذه الكنيسة بإيمانك بالمسيح وعزمك على أن تعيش عيشة مسيحية وتجاهر بتعهدك هذا على أن تربي روح الشركة المسيحية والمحبة الأخوية ؟

٣ ــ هل تتعهد إذا أبقاك الله وأولادك في الحياة ، بأن تربيهم في تأديب الرب وإنذاره ولمجد اسمه ، وأن تعلمهم عن حالتهم الطبيعية

التي أفسدتها الخطية ، وأن تقودهم إلى المخلص المجيد الرب يسوع المسيح .

٤ ــ هل تتعهد بأن تصلي معهم ولأجلهم وأن تواظب على الصلاة العائلية في البيت ؟

٥ ــ هل تتعهد بأن تكون مثالاً حسنًا وقدوة صالحة لهم في الحياة المسيحية والسلوك قولاً وفعلاً وأن تستخدم الوسائط المعنية لخلاصهم ؟

بعد أن يجيب الوالدون بنعم على هذه الأسئلة يطلب الخادم من الجمهور أن يقف لصلاة المعمودية ثم ينزل من على المنبر ويتقدم نحو المكان الذي يقف فيه الوالدون والأطفال وهو ممسك بالمعمودية ، ويبدأ صلاة المعمودية ، التي تحتوي على :

شكر الله لأجل رعايته للأسرة في كل مختلف مراحلها .
وشكر الله لأجل الكنيسة واهتمامها بالأطفال .
وشكر الله لأجل الأطفال لأنهم عطية من الله ، ومع العطية هم مسئولية خطيرة .
وشكر الله لأجل الروح القدس العامل في المؤمنين وأولادهم وتأكيد أننا نمارس هذه الفريضة حسب أمر المسيح (ثم يتقدم نحو الأطفال المحمولين من والديهم ، ليسأل عن اسم كل طفل ، ويعلن الاسم بصوت واضح ويقول أعمدك يا ... باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو يرش الماء ثلاث مرات على رأس الطفل) ثم يستكمل صلاته طالبًا من الله بركة روحية وزمانية للأطفال ، ومعونة للوالدين والكنيسة على رعايتهم .

ثم يقدم شهادات المعمودية إلى آباء الأطفال وهي معدة سابقًا حسب البيانات المأخوذة من الوالدين .

ملحق

المعمودية
في بيان ليما

المعمودية
في بيان ليما[٧٢]

أولاً : تأسيس المعمودية :

١ ــ تتأصل المعمودية المسيحية في كهنوت يسوع الناصري وفي موته وقيامته . فهي اندماج في المسيح ، الرب المصلوب والقائم ، ودخول في العهد الجديد بين الله وشعبه . المعمودية عطاء من الله ، إذ تمنح باسم الآب والابن والروح القدس . فالقديس متى كتب أن الرب القائم أرسل تلاميذه إلى العالم وأمرهم أن يعمدوا (متى ٢٨ : ١٨ ــ ٢٠) . ورسائل العهد الجديد وأعمال الرسل وكتابات الآباء تشهد للممارسة العامة للمعمودية من قِبل الكنيسة الرسولية منذ أيامها الأولى . والكنائس اليوم تكمل هذه الممارسة كخدمة طقسية للالتزام بالرب الذي يمنح نعمته لشعبه .

ثانيًا : معنى المعمودية :

٢ ــ المعمودية هي علامة الحياة الجديدة في يسوع المسيح . فهي توحد المعمد بالمسيح وشعبه . وأسفار العهد الجديد وليوترجيا الكنيسة يكشفان معنى المعمودية بصور مختلفة تعبر عن غنى المسيح وعن عطايا خلاصه . هذه الصور ترتبط أحيانًا بالاستعمالات الرمزية للماء في العهد الجديد . المعمودية اشتراك في موت المسيح وقيامته (رومية ٦ : ٣ ــ ٥ ، كولوسي ٢ : ١٢) ، وتطهير من الخطيئة (١كو ٦ : ١١) ، وولادة جديدة (يوحنا ٣ : ٥) ، واستنارة بالمسيح (أفسس ٥ : ١٤) ، ولبس له (غلا ٣ : ٢٧) ، وتجديد

بالروح (تيطس ٣ : ٥) ، وخبرة الخلاص من الطوفان (١ بطرس ٣ : ٢٠ و ٢١) ، وخروج من العبودية (١كو ١٠ : ١ و ٢) ، وتحرر نحو طبيعة إنسانية جديدة تتجاوز عوائق الانقسام في الجنس أو العرق أو الوضع الاجتماعي (غلا ٣ : ٢٧ و ٢٨ ، ١كو ١٢ : ١٣) . فالصور متعددة ، لكن الحقيقة واحدة .

أ ــ اشتراك في موت المسيح وقيامته :

٣ ــ المعمودية تعني اشتراكًا في حياة يسوع المسيح وموته وقيامته . فالمسيح نزل إلى نهر الأردن واعتمد تضامنًا مع الخطاة لكي يتم كل بر (متى ٣ : ١٥) . هذه المعمودية قادت يسوع إلى طريق الخادم المتألم ، فتجلت في آلامه وموته وقيامته (مرقس ١٠ : ٣٨ ــ ٤٠ و ٤٥) بالمعمودية يغطس المسيحيون في موت المسيح الخلاصي ، حيث تدفن خطاياهم وحيث يصلب « آدم القديم » مع المسيح وحيث تحطم قوة الخطيئة . فالمعمدون ليسوا عبيدًا للخطيئة بعد ، بل أحرار ، إذ بتمثلهم الكلي لموت المسيح يدفنون معه ويقامون ، هنا والآن ، لحياة جديدة بقوة قيامة يسوع المسيح ، واثقين أنهم سيصبحون واحدًا معه في قيامة تشبه قيامته (رومية ٦ : ٣ ــ ١١ ، كولوسي ٢ : ١٣ ، أفسس ٢ : ٥ و ٦) .

ب ــ الاهتداء ، الغفران ، والتطهير :

٤ ــ إن المعمودية التي تجعل المسيحيين مشاركين في سر موت المسيح وقيامته تتضمن اعترافًا بالخطيئة واهتداءً للقلب . فالمعمودية التي أقامها يوحنا كانت معمودية التوبة لغفران الخطايا (مرقس ١ : ٤) .

والعهد الجديد يؤكد ما تنطوي عليه المعمودية من أخلاق ، إذ يقدمها غسلاً يرحض الجسد بماء نقي ، وتطهيرًا للقلب من كل خطيئة وفعلاً للتبرئة (عب ١٠ : ٢٢ ، ١ بط ٣ : ٢١ ، أعمال ٢٢ : ١٦ ، ١كو ٦ : ١١) ، إذن ، المعمدون مسامحون ومطهرون ومقدسون بالمسيح ، فهم يتلقون توجيهًا خلقيًا جديدًا ، بهدى من الروح القدس ، يكون جزءًا من خبرة معموديتهم .

ج ـــ عطية الروح :

٥ ـــ يعمل الروح القدس في حياة الناس قبل المعمودية وفيها وبعدها . فهو الروح نفسه الذي أعلن يسوع ابنًا (مرقس ١ : ١٠ و ١١) ، وأعطى التلاميذ القوة والوحدة في يوم الخمسين (أعمال ٢) . إن الله يمنح كل معمد مسحة الروح القدس وموعده ، ويختمهم بخاتمه ويغرس في قلوبهم عربون ميراثهم كأبناء الله وبناته . والروح القدس يغذي حياة الإيمان في قلوبهم حتى الخلاص الأخير حينما يقتنون ميراثهم كاملاً ، للتسبيح بمجد الله (٢كو ١ : ٢١ و ٢٢ ، أفسس ١ : ١٣ و ١٤) .

د ـــ الاندماج في جسد المسيح :

٦ ـــ حينما تقام المعمودية بطاعة ربنا فإنها تكون علامة وخاتمًا للتلمذة المشتركة ، إذ بها يتحد المسيحيون بالمسيح وببعضهم البعض وبالكنيسة في كل مكان وزمان . فمعموديتنا المشتركة التي توحدنا بالمسيح في الإيمان هي رباط أساسي للوحدة . إننا شعب واحد مدعو إلى الاعتراف برب واحد وإلى خدمة رب واحد في كل مكان وفي

العالم أجمع . فالاتحاد بالمسيح الذي نشارك فيه بالمعمودية ينطوي على أمور مهمة للوحدة المسيحية . « فهناك ... معمودية واحدة وإله وآب واحد لجميع البشر » (أفسس ٤ : ٤ ـــ ٦) . عندما تتحقق وحدة المعمودية في الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية تصبح تأدية الشهادة المسيحية الحقيقية لمحبة الله الشافية والمصلحة ممكنة . من أجل ذلك ، تكون معموديتنا الواحدة في المسيح دعوة للكنائس حتى تتجاوز انقساماتها وتظهر شركتها للعيان .

تعليق على المقطع السادس

عندما تعجز الكنائس عن الاعتراف المتبادل بممارساتها المختلفة للمعمودية وكأنها مشاركة في المعمودية الواحدة ، وعندما تبقى منقسمة على الرغم من الاعتراف المتبادل بالمعمودية فإنها تعطي صورة مأساوية عن شهادة ضعيفة للكنيسة . وعندما تقبل الكنائس ، في بعض الأمكنة والأزمنة ، أن الاختلاف في الجنس والعرق والوضع الاجتماعي يقسم جسد المسيح ، فهذا يشكك في أصالة وحدة معمودية الجماعة المسيحية (غلا ٣ : ٢٧ و ٢٨) ويعرض شهادتها للخطر . إن الحاجة إلى استعادة وحدة المعمودية هي في قلب المهمة المسكونية ، كما هي مركز لحياة الشركة الأصلية ضمن الجماعات المسيحية .

هـ ـــ علامة الملكوت :

٧ ـــ تدخل المعمودية الناس في حقيقة الحياة الجديدة المعطاة في وسط العالم الحاضر وتجعلهم مشاركي الروح القدس . فهي علامة

ملكوت الله ، وعلامة حياة العالم الآتي . وبفضل عطايا الإيمان والرجاء والمحبة تكون المعمودية ذات فعالية تشمل الحياة كلها وتمتد إلى جميع الأمم وتتوقع اليوم الذي يعترف فيه كل لسان بأن يسوع المسيح هو الرب ، تمجيدًا لله الآب .

ثالثًا : المعمودية والإيمان :

٨ ــ المعمودية هي هبة من الله واستجابتنا الإنسانية لها بآن واحد . فهي تنزع إلى بلوغ قياس قامة المسيح في ملئها (أفسس ٤ : ١٣) . وجميع الكنائس تعترف بضرورة الإيمان لتقبل الخلاص الذي يتجسد في المعمودية وينطلق منها ، إذ أن الالتزام الشخصي ضروري لعضو مسؤول في جسد المسيح .

٩ ــ المعمودية ليست خبرة مؤقتة فقط ، بل نمو في المسيح يدوم مدى الحياة . فالمعمدون مدعوون إلى أن يعكسوا صورة مجد الرب . وأن يتحولوا إلى تلك الصورة عينها وهي تزداد مجدًا على مجد ، بفضل قوة الروح القدس (٢كو ٣ : ١٨) . إن حياة المسيحي هي بالضرورة جهاد مستمر ، ولكنها أيضًا خبرة مستمرة للنعمة . وفي هذه العلاقة الجديدة يعيش المعمدون للمسيح ، ولكنيسته وللعالم الذي يحبه ، منتظرين بفارغ الصبر ظهور خليقة الله الجديدة والوقت الذي يكون فيه الله الكل في الكل (رومية ٨ : ١٨ ــ ٢٤ ، ١كو ١٥ : ٢٢ ــ ٢٨ ، ٤٩ ــ ٥٧) .

١٠ ــ كلما نما المعمدون المؤمنون في الإيمان أظهروا أن الإنسانية تقدر أن تتجدد وتتحرر . فلهم مسؤولية مشتركة ، هنا والآن ،

للشهادة معًا لإنجيل المسيح ، الذي يحرر الكائنات البشرية . ومحيط هذه الشهادة المشتركة هو الكنيسة والعالم . في هذه المشاركة في الشهادة والخدمة يكتشف المسيحيون المعنى الكامل للمعمودية الواحدة كعطية من الله لكل شعبه . وفوق ذلك يتحققون من أن المعمودية في موت المسيح تنطوي على التزام خلقي لا يدعو إلى تقديس شخصي فقط ، بل إلى جهاد يتم مشيئة الله في قطاعات الحياة كلها (رومية ٦ : ٩ ... ، غلا ٣ : ٢٧ و ٢٨ ، ١بط ٢ : ٢١ ـــ ٤ : ٦) .

رابعًا : ممارسة المعمودية :

أ ـــ معمودية البالغين ومعمودية الأطفال :

١١ ـــ لا نقدر أن نلغي إمكانية ممارسة معمودية الأطفال في العصر الرسولي ، لكن المعمودية التي تلي الاعتراف الشخصي بالإيمان هي الشكل المؤكد بكل وضوح في نصوص العهد الجديد . تطورت ممارسة المعمودية خلال التاريخ تبعًا لأشكال متعددة . فبعض الكنائس كانت تعمد الأطفال الذين يقدمهم أهلهم أو العرابون الذين يتعهدون ، في الكنيسة ومعها ، تربيتهم وفق الإيمان المسيحي . والبعض الآخر يمارس حصرًا معمودية المؤمنين القادرين على الاعتراف الشخصي بالإيمان . بعض هذه الكنائس توصي بتقدمة الأطفال والأولاد لمباركتهم بخدمة تتضمن الشكر على عطية الولد والتزام الأب والأم الأبوة المسيحية . جميع الكنائس تعمد المؤمنين الذين يأتون من أديان أخرى أو من عديمي الإيمان ويقبلون الإيمان المسيحي ويشتركون في التعليم المسيحي .

١٢ ــ تأخذ معمودية البالغين ومعمودية الأطفال مكانهما في الكنيسة كشركة وإيمان . فعندما يقدر المعمد أن يجيب عن نفسه يكون الاعتراف الشخصي بالإيمان جزءًا مكملاً لخدمة المعمودية . وعندما يعمد طفل فإن جوابه الشخصي سيقدمه فيما بعد ، أي في حياته . وفي الحالتين كلتيهما يجب أن ينمو المعمد في فهم الإيمان . فالذين يتعمدون وهم قادرون على الاعتراف الشخصي بالإيمان ، يحتاجون إلى النمو المستمر في الإجابة الشخصية على الإيمان . أما عند الأطفال فثمة توقع لاعتراف شخصي لاحق ، لذلك توجه تربيتهم المسيحية إلى استخراج هذا الاعتراف . كل معمودية هي متأصلة في وفاء المسيح حتى الموت وتعلن هذا الوفاء . فهي في قلب حياة الكنيسة وإيمانها ، وتعلن وفاء الله ، أساس كل حياة في الإيمان . في كل معمودية تؤكد الجماعة كلها إيمانها من جديد بالله وتتعهد تقديم جو من الشهادة والخدمة للمعمد . إذن ، من الواجب أن تقام المعمودية وتنمو في إطار الجماعة المسيحية .

تعليق على المقطع الثاني عشر

عندما نستعمل عبارتي « معمودية الأطفال » و « معمودية البالغين » من الضروري أن ننتبه إلى أن التمييز الحقيقي هو بين الذين يعمدون الناس في أي سن كانوا وبين الذين لا يعمدون إلا القادرين على الاعتراف بالإيمان بأنفسهم . والفروقات بين معمودية الأطفال ومعمودية البالغين تصبح أقل حدة عندما نقر بأن شكلي المعمودية يجسدان مبادرة الله في المسيح ويعبران عن الاستجابة للإيمان ضمن الجماعة المؤمنة .

تؤكد ممارسة معمودية الأطفال الإيمان المشترك والإيمان الذي يشارك فيه الطفل أهله . فالطفل ينمو في عالم ممزق ويشارك في هذا التمزق . لكن بالمعمودية يودع وعد الإنجيل ودعوته عند الطفل . فالإيمان الشخصي عند المعمد ومشاركته المخلصة في حياة الكنيسة هما أساسيان حتى تحمل المعمودية ثمارها الكاملة .

تؤكد معمودية البالغين أيضًا اعتراف من يقبل نعمة الله ، في شركة الإيمان ومن خلالها ، ومن يطلب المعمودية . فشكلا المعمودية يتطلبان موقفًا مسئولاً من التنشئة المسيحية . ولعل إعادة اكتشاف الميزة الدائمة للتنشئة المسيحية تسهل القبول المتبادل للممارسات المختلفة للمسيرة المسيحية .

في بعض الكنائس التي توحد تقليديّ المعمودية ، أي معمودية الأطفال ومعمودية البالغين ، يعتبر هذان التقليدان خيارين متكافئين لدخول الكنيسة ، فمن جهة هناك الشكل الذي يلي فيه الاعتراف اللاحق بالإيمان للمعمودية فى الصغر ، ومن جهة أخرى هناك الشكل الذي تلي فيه معمودية البالغين تقدمة المؤمن ومباركته في طفولته . هذا المثل يدعو كنائس أخرى إلى تقرير ما إذا كانت ، أيضًا ، غير قادرة على التسليم بخيارين متكافئين في علاقاتها المتبادلة وفي المفاوضات الكنسية من أجل الوحدة .

١٣ ــ المعمودية عمل لا يمكن تكراره . ولذلك يجب تجنب كل ممارسة يمكن تفسيرها « كإعادة للمعمودية » .

تعليق على المقطع الثالث عشر

إن الكنائس التي أصرت على شكل خاص للمعمودية ، أو كانت عندها تساؤلات جدية عن أصالة أسرار الكنائس الأخرى وكهنوتها ، طلبت أحيانًا من الأشخاص الذين يأتون من تقليد كنيسة أخرى أن يعتمدوا قبل أن يصبحوا أعضاء كاملين فيها . وبما أن الكنائس وصلت إلى تفاهم متبادل أكبر ودخلت في علاقات أوثق في الشهادة والخدمة فإنها ترغب في الكف عن كل ممارسة تطرح الكمال الأسراري للكنائس الأخرى للنقاش ، أو عما ينقص من حقيقة عدم تكرار المعمودية .

١٤ ــ المعمودية ــ المسح بالميرون ــ التثبيت :

في عمل الله من أجل الخلاص يرتبط السر الفحصي لموت المسيح وقيامته ارتباطًا لا ينفك بهبة الروح القدس في العنصرة . وهكذا ترتبط المشاركة في موت المسيح وقيامته ارتباطًا لا ينفك بتقبل الروح . فالمعمودية في معناها الكامل تعبر وتدل على الاثنين معًا . يختلف المسيحيون في فهمهم لمكان وجود علامة الروح . فإعطاء الروح ارتبط بإشارات مختلفة . عند البعض هو طقس الماء نفسه ، وعند البعض الآخر هو المسحة بالميرون أو (و) وضع اليد على الرأس الذي تسميه كنائس عديدة تثبيتًا . وحتى عند البعض الآخر فهو الثلاثة معًا ، لأنهم يرون أن الروح فاعل عبر الطقس . والجميع متفقون على أن المعمودية المسيحية هي بالماء والروح القدس .

تعليق على المقطع الرابع عشر

(أ) في بعض التقاليد يتضح أنه كما تثبتنا المعمودية في المسيح المصلوب والمدفون والقائم هكذا يتلقى المسيحيون ، بمسحة الميرون ، هبة روح العنصرة من الابن الممسوح .

(ب) إذا كانت المعمودية ، بكونها اندماجًا في جسد المسيح ، تشير بطبيعتها إلى المشاركة الأفخاريستية في جسد المسيح ودمه ، فكيف يضاف طقس منفصل ويوضع بين المعمودية وبين قبول سر الشكر . فالكنائس التي تعمد الأطفال ، لكنها تمنعهم من المشاركة في الأفخاريستيا قبل طقس كهذا ينبغي أن تفكر مليًا فيما إذا قومت نتائج المعمودية وقبلتها .

(ج) يجب أن يتكرر تأكيد المعمودية بدون توقف والشكل الأكثر وضوحًا لاستمرار هذا التأكيد هو الاحتفال بسر الشكر . ومن الممكن أيضًا أن تجدد نذور المعمودية في مناسبات مختلفة ، مثل الاحتفال السنوي للسر الفصحي أو معمودية الآخرين .

ج ــ نحو اعتراف متبادل بالمعمودية :

١٥ ــ أخذت الكنائس تعترف أكثر فأكثر بمعمودية بعضها البعض كمعمودية واحدة في المسيح حينما يعترف المتقدم إلى المعمودية بيسوع المسيح ربًا وعندما تقوم الكنيسة (الأهل والأوصياء ، والعرابون ، وجماعة المؤمنين) بالاعتراف ويثبت هذا الاعتراف فيما بعد بالإيمان الشخصي والالتزام . إن الاعتراف المتبادل بالمعمودية هو بالتأكيد علامة مهمة ووسيلة للتعبير عن وحدة المعمودية المعطاة

بالمسيح . ولذلك يجب على الكنائس أن تعبر جليًا عن الاعتراف المتبادل بالمعمودية ، وذلك حيث يكون هذا ممكنًا .

١٦ ــ ولكي يتجاوز معمدو البالغين ومعمدو الأطفال خلافاتهم يجب أن يعيدوا النظر في بعض أوجه ممارساتهم . فمعمدو البالغين يجب أن يسعوا إلى التعبير الأوضح عن أن الأطفال هم تحت رعاية نعمة الله . الأطفال يجب أن يحترسوا من ممارسة المعمودية بلا تمييز وأن يأخذوا بجدية أكبر مسؤوليتهم تجاه تربية الطفل المعمد بغية التزام بالغ بالمسيح .

خامسًا : إقامة المعمودية :

١٧ ــ تقام المعمودية بالماء على اسم الآب والابن والروح القدس .

١٨ ــ في إقامة المعمودية يجب أن يؤخذ البعد الرمزي للماء بجدية وأن لا ينتقص من أهميته . فالتغطيس يقدر أن يعبر بحيوية عن مشاركة المسيحي في موت المسيح ودفنه وقيامته .

تعليق على المقطع الثامن عشر

في بعض التقاليد اللاهوتية ، يدل استعمال الماء ، مع كل ارتباطه الإيجابي بالحياة والبركة ، على الاستمرارية بين الخليقة القديمة والخليقة الجديدة ، ولذلك يبرز أهمية المعمودية بالنسبة إلى الكائنات البشرية ، وبالنسبة إلى العالم بأجمعه . في الوقت نفسه ، يبين استعمال الماء تطهير الخليقة والموت عن كل ما هو سلبي ومدمر في العالم : فالذين اعتمدوا في جسد المسيح أصبحوا شركاء في وجود جديد .

١٩ ـــ قد يعبر عن عطية الروح بطرق مختلفة ، كما كانت الحالة في العصور الأولى ، مثل رفع اليد فوق الرأس والمسحة أو الميرون . فعلامة الصليب نفسها تذكر بختم الروح القدس الموعود ، الذي هو عربون الميراث ، إلى أن يفتدي الله خاصته (أفسس ١ : ١٣ ـــ ١٤) . ولعل استعادة علامات حية كهذه تغنى الليتورجيا .

٢٠ ـــ في أية خدمة كاملة للمعمودية يجب أن نجد على الأقل العناصر التالية : استدعاء الروح القدس ورفض الشيطان واعتراف بالإيمان بيسوع والروح القدس واستعمال الماء والتصريح بأن الأشخاص المعمدين قد اكتسبوا هوية جديدة كأولاد الله وبناته وكأعضاء في الكنيسة دعوا لتقديم الشهادة للإنجيل . بعض الكنائس تعتبر أن المسيرة المسيحية لا تكون كاملة بدون ختم الروح القدس المعطي إلى المعمد وبدون المشاركة في جسد الرب ودمه .

٢١ ـــ من الملائم أن نفسر في إطار خدمة المعمودية معنى هذه المعمودية طبقًا للكتاب المقدس ، أي المشاركة في موت المسيح وقيامته والاهتداء والمغفرة والتطهير وعطية الروح والاندماج في جسد المسيح وعلامة الملكوت .

تعليق على المقطع الواحد والعشرين

دلت المناقشات الحديثة على ضرورة إعطاء انتباه أكبر لسوء الفهم الذي يقويه الإطار الاجتماعي ـــ الثقافي الذي تقام فيه المعمودية .

(أ) في بعض مناطق العالم أوصلت عادة إعطاء اسم للمعمد أثناء

الخدمة إلى الخلط بين المعمودية والعادات المحلية التي ترتبط بإعطاء الاسم . هذا الخلط يكون مؤذيًا بوجه خاص إذا اضطر المعمدون أن يأخذوا أسماء غير متأصلة في تقليدهم الثقافي ، بسبب وجودهم في ثقافة يهيمن عليها الجو اللا مسيحي . عندما تعد الكنائس أنظمتها الخاصة بالمعمودية يجب أن تكون منتبهة للتشديد على المعنى الحقيقي للمعمودية وتجنب تغرب المعمدين عبثًا عن ثقافتهم المحلية بفرض أسماء غريبة عنهم . فالاسم الموروث من ثقافة الإنسان الأصلية يؤصل المعمد في هذه الثقافة ، وفي الوقت نفسه يظهر شمولية المعمودية والاندماج في الكنيسة الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية ، الممتدة فوق جميع أمم الأرض .

(ب) في كثير من الكنائس العظمى الأوروبية والأميركية ، تمارس عادة معمودية الأطفال بلا تمييز واضح . وهذا يساعد في معارضة الكنائس التي تمارس معمودية البالغين في الاعتراف بشرعية معمودية الأطفال . هذا الواقع يجب أن يقود إلى تفكير نقدي أكبر في معنى المعمودية ضمن هذه الكنائس العظمى نفسها .

(ج) بعض الكنائس الأفريقية تمارس معمودية الروح القدس من دون ماء ، من خلال وضع اليد على الرأس ، على الرغم من اعترافها بمعمودية الكنائس الأخرى . لذلك كانت دراسة هذه الممارسة وعلاقتها بمعمودية الماء ضرورية .

٢٢ ــــ يقيم المعمودية عادة خادم مكرس ، ولو أنه يُسمح للآخرين بإقامتها في بعض الظروف الخاصة .

٢٣ ــ بما إن المعمودية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة الجماعة وعبادة الكنيسة ، فمن الواجب أن تقام في خدمة ليتورجية عامة ، حتى يتذكر أعضاء الجماعة معموديتهم الشخصية ويرحبوا بالمعمدين في شركتهم ويتعهدوا تنشئتهم وفق الإيمان المسيحي . والأعياد الكبرى كالفصح والعنصرة والظهور الإلهي هي الأوقات الملائمة لإقامة المعمودية ، كما كانت الممارسة في الكنيسة الأولى .

مقالات ودراسات

- جورج حبيب بباوي ـــ د . **قبول معمودية الكنائس الكاثوليكية والإنجيلية في مصر** . دراسة قُدِّمت بمجلة الهدى .
- عبد المسيح اسطفانوس ـــ د . **إقرار الإيمان الإنجيلي** . دراسة قُدِّمت في لقاء هيئة التدريس بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة ١٩٨٩ .
- مكرم نجيب ـــ ق . **الروح القدس** . دراسة قُدِّمت بمجلة أجنحة النسور .

المراجع

ـــ البابا شنودة الثالث . **الخلاص في المفهوم الأرثوذكسي** . (الطبعة الخامسة) . القاهرة : الكلية الإكليريكية ، ١٩٦٧ .

ـــ البابا شنودة الثالث . **بدعة الخلاص في لحظة** . القاهرة : الكلية الإكليريكية ، ١٩٨٥ .

ـــ البابا شنودة الثالث . **الكهنوت** (الجزء الأول) . القاهرة : الكلية الإكليريكية ، ١٩٨٥ .

ـــ **الدسقولية أو تعليم الرسل** (الطبعة الخامسة) . ترجمة القمص مرقس داود . القاهرة : مكتبة المحبة ، ١٩٧٩ .

ـــ **المعمودية الأفخارستيا والكهنوت** . تعريب الأب ميشال نجم . بيروت : منشورات النور بالاشتراك مع مجلس كنائس الشرق الأوسط ، ١٩٨٤ .

ـــ إلياس مقار ـــ ق . **إيماني** . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٣ .

ـــ جورج حبيب بباوي ـــ د . **المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي** . القاهرة : الكلية الإكليريكية ، ١٩٨٢ .

ـــ جون لوريمر ـــ د . **تاريخ الكنيسة** (الجزء الأول) . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٢ .

ـــ جون لوريمر ـــ د . **تاريخ الكنيسة** (الجزء الثاني) . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٥ .

ـــ جون لوريمر ـــ د . **تاريخ الكنيسة** (الجزء الثالث) القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٨ .

ـــ حنا الخضري ـــ د . **تاريخ الفكر المسيحي** (المجلد الأول) . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨١ .

ـــ عوض سمعان . **الكهنوت** (الطبعة الثانية) . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٥ .

ـــ فايز فارس ـــ د . ق .**حقائق أساسية في الإيمان المسيحي** . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٩ .

ـــ فايز فارس ـــ د . ق . **الاقتراب إلى الله** . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٥ .

ـــ فهيم عزيز ـــ د . **الفكر اللاهوتي في كتابات بولس** . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨١ .

ـــ فهيم عزيز ـــ د . **علم التفسير** . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٦ .

ـــ فهيم عزيز ـــ د . **ملكوت الله** (الطبعة الثانية) . القاهرة : دار الثقافة ١٩٨٨ .

ـــ مكرم نجيب ـــ ق . **الحركة الكاريزماتية** . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٧

ـــ **نظام العبادة** . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٨ .

ـــ هاري ايرتس ـــ د . **مصلح في المنفى** . ترجمة وليم بباوي . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٢ .

ـــ هنري ثيسن ـــ د . **محاضرات في علم اللاهوت النظامي** . ترجمة د . فريد فؤاد عبد الملك . القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٨٧ .

ـــ وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني (الطبعة الثانية) . القاهرة : ١٩٧٩ .

هوامش الكتاب

الفصل الأول

معمودية يوحنا ومعمودية يسوع

١ — Kline , Meredith G . **By Oath Consigned** . Grand Rapids , Michigan : William B . EErdmans Publishing Co ., 1967 , P . 61 .

٢ — فهيم عزيز — د . **ملكوت الله** (الطبعة الثانية) . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٨ ، صفحة ١٣٧ و ١٣٨ .

٣ — Green , Michael . **Baptism** . London : Hodder and Stoughton , 1987 , pp . 36 - 37 .

٤ — Beasley . Murray . **Baptism in the New Testament** . New York : Macmillan , 1963 , pp . 45 - 66 .

٥ — Bridge , Donald and Phypers , David . **The Water that Divides** . Downers Grove , Illinois : Inter Varsity Press , 1977 , P . 18 .

٦ — Green , Michael . ibid , pp . 40 - 43 .

الفصل الثاني

المعمودية المسيحية والمفهوم الكتابي واللاهوتي

٧ — Kline , ibid , p . 16 .

٨ — Kline , ibid . p . 47 .

٩ — Bridge and Phypers , ibid . p . 43 .

١٠ — هاري ايرتس — د . **مصلح في المنفى** . ترجمة : وليم وهبة بباوي . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٢ ، صفحة ١٥٥ .

١١ — Fuller , Reginald H . **Christian Initiation** . University of Notredame Press , 1976 , p . 13 .

١٢ — Burkhart , John E . **Worship** , Philadelphia : The Westminister Press , 1982 , p . 132 .

١٣ — Maquorrie , John . **Principles of Christian Theology** . London : SCM Press LTD , 1966 , pp . 407 - 410 .

١٤ — Green , Michael , ibid , pp . 50 - 53 .

١٥ — جورج حبيب بباوي — د . **المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي** . القاهرة ، الكلية الإكليريكية ، ١٩٨٢ صفحة ١٥٦ .

١٦ — Burkhart , ibid , pp . 138 - 140 .

الفصل الثالث

المعمودية والأساس والإطار

١٧ ــ فهيم عزيز ــ د . **الفكر اللاهوتي في كتابات بولس** . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨١ ، صفحة ٣٥٢ ــ ٣٥٤ .

١٨ ــ فهيم عزيز ــ د . المرجع السابق صفحة ٣٥١ ــ ٣٥٣ .

الفصل الرابع

المعمودية والحياة الجديدة

١٩ ــ فهيم عزيز ــ د . المرجع السابق ، صفحة ٣٥٠ .

٢٠ ــ هنري ثيسن ــ د . **محاضرات في علم اللاهوت النظامي** . ترجمة د . فريد فؤاد عبد الملك ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٧ ، صفحة ٥٥١ .

٢١ ــ Burkhart , ibid , pp . 146 - 148 .

٢٢ ــ Green , ibid , pp 54 - 57 .

٢٣ ــ البابا شنودة الثالث . **الخلاص في المفهوم الأرثوذكسي** . (طبعة ٥) القاهرة ، الكلية الإكليريكية ، ١٩٦٧ ، صفحة ٢٥ ــ ٣٤ .

٢٤ ــ البابا شنودة الثالث . **بدعة الخلاص في لحظة** . القاهرة ، الكلية الإكليريكية ، ١٩٨٥ ، صفحة ٢٤ ــ ٣٢ .

٢٥ — Green , Ibid , p . 55 .

٢٦ — فايز فارس — د . **حقائق أساسية في الإيمان المسيحي** . القاهرة . دار الثقافة ، ١٩٧٩ ، صفحة ٢٤٣ .

٢٧ — فهيم عزيز — د . المرجع السابق ، صفحة ٣٤٧ و ٣٤٨ .

٢٨ — فهيم عزيز — د . المرجع السابق ، صفحة ٣٤٨ .

٢٩ — Guthrie , Donald - **The Pastoral Epistles** . England : Inter Varsity Press , 1957 . pp . 205 - 206 .

الفصل الخامس

معمودية البالغين ومعمودية الأطفال

٣٠ — فهيم عزيز — د . **ملكوت الله** (طبعة ثانية) . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٨ ، صفحة ٢٣٤ .

٣١ — Green , ibid , pp . 67 - 69 .

٣٢ — Green , ibid , pp . 72 - 76 .

٣٣ — حنا الخضري — د . **تاريخ الفكر المسيحي** (المجلد الأول) القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨١ ، صفحة ٥٢٢ .

٣٤ — الياس مقار — ق . **إيماني** . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٣ ، صفحة ٤٩٨ .

٣٥ — Green , ibid , p . 75 .

٣٦ ـ جون لوريمر ـ د . **تاريخ الكنيسة** (الجزء الأول) . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٢ ، صفحة ٩٦ .

٣٧ ـ جون لوريمر ـ د . المرجع السابق (الجزء الثاني) . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٥ ، صفحة ١٢٤ .

٣٨ ـ Knaake (Ed .) . **The Works of Martin Luther** . Philadelphia : Muhlenburg Press for Concordia , 1960 , Vol . 30 , p . 476 .

٣٩ ـ CAlvin , John . **Institutes of the Christian Religion** - English Translation , SCM , 1961 , IV ., XVI . 21 , 9 .

٤٠ ـ Green , ibid , pp . 76 - 77 .

٤١ ـ Maquarrie , ibid , pp . 411 - 412 .

الفصل السادس

المعمودية والتثبيت

٤٢ ـ جون لوريمر ـ د . المرجع السابق (الجزء الأول) صفحة ١٥٥ .

٤٣ ـ جون لوريمر ـ د . المرجع السابق (الجزء الثاني) صفحة ٩٦ .

٤٤ ـ جون لوريمر ـ د . **تاريخ الكنيسة** (الجزء الثالث) . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٨ ، صفحة ١٢٤ .

٤٥ ـ Green , ibid , pp . 101 -105 , 110 - 111 .

٤٦ ــ فهيم عزيز ــ د . **الفكر اللاهوتي في كتابات بولس** . القاهرة ، صفحة ٣٦٤ و ٣٦٥ .

٤٧ ــ عبد المسيح اسطفانوس ــ د . **إقرار الإيمان الإنجيلي** ، دراسة قدمت في لقاء هيئة تدريس كلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة في ٢ مايو ١٩٨٩ .

٤٨ ــ Green , ibid , pp . 108 - 109 .

٤٩ ــ **وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني** (الطبعة الثانية) ، ١٩٧٩ ، الجزء الثالث ، الفصل الثالث ، فقرة ٦٩ ، صفحة ٥٢٥ .

٥٠ ــ Bridge and Phypers , ibid , pp . 161 - 162 .

الفصل السابع

إعادة المعمودية

٥١ ــ Marty , Martin E . **Baptism** . Philadelphia : Muhlenburg Press , 1962 , pp . 45 - 46 .

٥٢ ــ **نظام العبادة** . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٨ ، صفحة ٥٦ ، ٥٧ .

٥٣ ــ Green , ibid , p . 119 .

٥٤ ــ Bridge and phypers , ibid , pp . 175 - 179 .

٥٥ ــ فايز فارس ــ د . المرجع السابق ، صفحة ٢٤٤ ــ ٢٤٥ .

٥٦ — Green , ibid , p . 116 .

٥٧ — عوض سمعان . **الكهنوت** (الطبعة الثانية) . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٥ ، صفحة ٣٦٥ .

٥٨ — **وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني** . الجزء الثالث ، الفصل الثالث ، فقرة ٦٨ ، صفحة ٥٢٥ .

٥٩ — **إيماني الإنجيلي** ، دار الثقافة ، ١٩٧٧ ، صفحة ٩٩ .

٦٠ — Green , ibid , p . 117 .

٦١ — البابا شنودة الثالث ، **الكهنوت** (الجزء الأول) . القاهرة ، الكلية الإكليريكية ، ١٩٨٥ ، صفحة ٤٣ .

٦٢ — عوض سمعان ، المرجع السابق ، صفحة ٣٦٨ و ٣٦٩ .

٦٣ — **الدسقولية أو تعليم الرسل** (الطبعة الخامسة) . ترجمة القمص مرقس داود . القاهرة ، مكتبة المحبة ، ١٩٧٩ ، صفحة ١٢٤ .

٦٤ — **وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني** صفحة ٥٢٥ .

٦٥ — Kung , Hans . **The Church** . New yourk : Sheed and Ward. Press , 1967 , pp . 363 - 387 .

٦٦ — Marty , Martin E. ibid , p. 33 .

٦٧ — Green , ibid , pp . 120 - 122 .

٦٨ ــ جورج حبيب بباوي ــ د . **قبول معمودية الكنائس الكاثوليكية والإنجيلية في مصر** . دراسة قُدِّمت بمجلة الهدى .

الفصل الثامن

معمودية الماء ومعمودية الروح

٦٩ ــ فهيم عزيز ــ د . **الفكر اللاهوتي في كتابات بولس** (المرجع السابق) ، صفحة ٣٤٨ ــ ٣٥٠ .

٧٠ ــ مكرم نجيب ــ ق . **الحركة الكاريزماتية** . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٧ ، صفحة ٦٢ ــ ٦٤ .

٧١ ــ مكرم نجيب ــ ق . **الروح القدس** دراسة قُدِّمت في عدة أعداد بمجلة أجنحة النسور .

ملحق

المعمودية في بيان ليما

٧٢ ــ **المعمودية الأفخارستيا والكهنوت** . تعريب الأب ميشال نجم . بيروت ، منشورات النور بالاشتراك مع مجلس كنائس الشرق الأوسط ، ١٩٨٤ ، صفحة ٢٣ ــ ٣٧ .

REFERENCES

- Bartow , Charles L . **Effective Speech Communication : In leading Worship** . Nashville , TN : Abingdon Press , 1988 .

- Barth , Karl . **The Teaching of the Church Regarding Baptism** . English Translation , Londodn : SCM Press , 1948 .

- Beasley - Murray , G . R . **Baptism in the New Testament** . New York : Macmillan , 1963 .

- Bridge , Donald and Phypers , David . **The Water that Daivides** . Downers Grove , Illinois : Inter Varsity Press , 1977 .

- Burkhart , John E . **Worship** . Philadelphia: The Westminister Press , 1982 .

- Calvin , John . **Institutes of Christian Religion** . English Translation , London : SCM Press , 1961 .

- Fuller , Reginald H. **Christian Initiation** . University of Notre Dame Pres , 1976 .

- Green , Michael . **Baptism** . London : Hodder and Stoughton , 1987 .

- Guthrie , Donald . **The Pastoral Epistles** . England : Inter Varsity Press , 1957 .

- Jeremias , Joachim . **Infant Baptism in the First Four Centuries .** English Translation , London : SCM Press , 1960 .

- Jeremias , Joachim . **The Origins of Infant Baptism .** English Translation , London : SCM Press , 1963 .

- Kline , Meredith G . **By Oath Consigned .** Grand Rapids , Michigan : William B . EErdmans Publishing Company , 1967 .

- Knaake , J . K . F . (Ed) . **The Works of Martin Luther .** Philadelphia : Muhlenburg Press for Concordia , 1960 .

- Kung , Hans . **The Church .** New York : Sheed and Ward Press , 1967 .

- Kurt , Aland . **Did the Early Church Baptize Infants ?** English Translation , London : SCM Press , 1963 .

- Maquorrie , John . **Principles of Christian Theology .** London : SCM Press LTD , 1966 ;

- Marty , Martin E . **Baptism .** Philadelphia : Muhlenburg Press , 1962 .

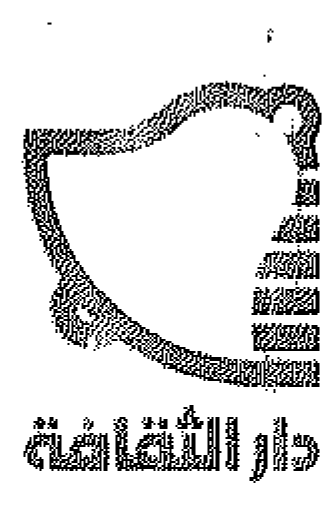
هذا الكتاب

يناقش بكل وضوح قضية هامة فى حياتنا المسيحية نشأت عنها مشكلات تطبيقية عديدة فى الآونة الأخيرة .

ولا شك أن العودة للكتاب المقدس تزيل كثيرا من الغموض وتجيب على الأسئلة الحائرة التى تسبب بعض المشكلات مثل :

- ما هو المفهوم الكتابى واللاهوتى للمعمودية .
- العلاقة بين المعمودية والخلاص .
- لماذا نعمد الأطفال ؟
- وهل تعاد المعمودية ؟
- وما العلاقة بين معمودية الماء ومعمودية الروح القدس .

اقرأ هذا الكتاب لتفهم أسباب كثير من الاختلافات ولتعرف رأى الكتاب المقدس .





١٠١٠٠١٦١